سنة ١٩١٠

عباس يؤدى فريضة الحج . مسألة امتياز قناة السويس فى الجمعية العمومية . مقتل بطرس غالى باشا . الرئيس روزفلت رئيس جمهورية أمريكا بمصر . تعييني مديراً لديوان الأوقاف العمومية وبعض أعمالى فيه . وفاة ملك الانجليز . سفرى للاسكندرية لقضاء فصل الصيف كالنظار . اختيارى لرآسة لجنة امتحان مدرسة المعلمين الناصرية . قضية ديوان « وطنيتى » . الخطوة الثالثة لاصلاح الأزهر .

عباس يؤدى فريضة الحج . عزم الخديو على أداء فريضة الحج منذ العام الماضى مع دولة الوالدة فأبلغنا الأستانة بذلك لتقوم باتخاذ ما يلزم لراحة سموه أثناء السفر وأداء الفريضة . وتقرر أن يكون بطرس غالى باشا « قائمقام خديو » مدة غيابه ، وقد كتبت صيغة الأمر الخديوى بهذا التعيين فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٩ بحضور اسماعيل أباظه باشا والشيخ على يوسف ، ولوحظ أنه يحتوى على نقطتين هامتين : الأولى الثناء على الحكومة العثمانية وعلى السلطان بقصد إرضائهما بعدما كان من موقف الحكومة المصرية فى مسألتى القاضى والقرض ، والتنويه بذكر الخلافة الاسلامية للسلطان . والنقطة الثانية إظهار شعور الخديو نحو الأمة المصرية لتقريب النفوس وجذبها إليه . ومما جاء فى آخر الأمر : « وسنرفع أكف الضراعة إلى مقام العزة الالهية فى تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا إلى خدمة الأمة العزيزة المصرية التى لا نفارقها إلا وقلبنا معها ، وفكرنا مشتغل بما يؤدى إلى خيرها ومجدها فى الحال والاستقبال ، كما أننا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لنا فى الحل والترحال . »

ثم توجهت لبطرس باشا لأعرض عليه المشروع ولكنى لم أجده فتركته مع

قطة باشا سكرتير مجلس النظار ، ولفت نظره إلى النقطتين السالفتين بنوع خاص ، ثم ذهبت إلى سراى عابدين لوداع الموظفين بأقلام المعية إذ كنا على أهبة السفر .

الوصول إلى مكة : وفى ضحى يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٠٩ تحرك بنا القطار من القبة ، وكان معى اللواء حسين محرم باشا السرياور ، ومحمد عزت باشا ، واحمد خيرى باشا ، واحمد صادق بك وكيل الخاصة ، ومحمود محمد بك من القلم العربى ، والشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ، والسيد محمد الببلاوى من العلماء ووكيل الكتبخانة الخديوية ، والشيخ محمد عاشور مفتى الأوقاف الخصوصية ، وبعض ضباط الحرس لنعد ما يلزم لاستقبال الخديو فى مكة .

وقد وصلنا إلى السويس الساعة الرابعة مساء فنزلنا بالباخرة « برنس عباس » وقضينا بها الليلة . وفى مساء ٨ منه غادرنا السويس وأحرمنا صباح ١٠ منه عند وصولنا أمام ثغر رابغ وبدأنا بالتلبية . وفى عصر هذا اليوم وصلنا إلى جدة ونزلنا فى منزل السيد عمر ناصف وكيل الشريف فى جدة ، فاستقبلنا نجله أحسن استقبال وبتنا بها . وفى صباح اليوم التالى لحقنا بركب المحمل ، فوصلنا إلى بحرة فى الساعة العاشرة مساء ، وفى الطريق شاهدنا قلاعاً تحتلها العساكر الشاهانية ، وكانت عند اقترابنا تحيينا بالسلام ، وفى بحرة قدم لاستقبالنا فيصل بك وعبد الله بك(*) نجلا الشريف والشريف جميل بك ابن أخى الشريف موفداً منه ومعه ياور الشريف احمد بك ، ولما وصلنا إلى المدخل الضيق الموصل إلى مكة والمعد لتعداد الجمال والحجاج ، دعينا لركوب عربتين . فركبنا ودخلنا المدينة ومررنا بين شوارع قفرة وبيوت عتيقة حتى وصلنا إلى الحرم الشريف . وبعد أن أدينا مراسم الحج قصدنا دار الامارة . فأبلغت الأمير الشريف حسين السلام الخديوى ونحن وقوف . فتشكر ثم جلسنا وشكرته على العناية التى لقيناها فى جدة ، وفى طول الطريق .

وقد علمت أن الشريف أعد داره لنزول الخديو ، وأما الوالدة فقد خصص لها منزل بناجا باشا أمام الحرم ، وكذلك أعدت المساكن لرجال الحاشية وبعضها مطل على الحرم .

وفى ١٤ منه زرنا بعض المقامات والمقابر ، وطفنا ببعض الشوارع الضيقة ، وعلى العموم لم ترق البلدة فى نظرى من حيث نظافتها وأحوالها الاجتماعية .

(*) هما ثنيا بعد المرحوم الملك فيصل ، وسمو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن .

استقبال الخديو : وفى ١٥ منه ووصل إلينا نبأ وصول الخديو إلى جدة وقيامه منها إلى بحرة ، فذهبت للشريف وأبلغته ذلك ، وبعد المحادثة قررنا إرسال مذكرة لسموه بكيفية الاستقبال التى اتفقنا عليها ونصها :

« ينتظر الشريف فى قهوة البستان مع وكيل الوالى والعساكر الشاهانية وقومندانها وبعض الأشراف ، وتقيم البلدية سرادقاً للاستقبال ، ويقدم أعيان البلدية والأعيان بواسطة الشريف . »

ولما وصل الخديو إلى بحرة كان يرافقه سمو البرنس كمال الدين حسين ، والشيخ بكرى الصدفى المفتى ، والدكتور على لبيب بك الجراح وبعض الياوران والحاشية ، وكان سموه ممتطياً صهوة جواده وسائراً فى الطليعة خلف ثلة من الحرس السوارى ، ويحيط هذا الركب فرقة من الجنود العثمانية ومعهم أنجال الشريف ومندوب حكومة الحجاز ، وجم غفير من الأشراف .

ولما نزلت الوالدة وكريمتاها ركبن عربة « لاندو » تجرها أربعة بغال ، أما البرنسيس فاطمة فاضل خانم افندى والقلفوات فركبن عربة الشريف والهوادج ، وأعدت شقادف لباقى رجال المعية ، وكان حول الموكب سوارى الحرس الخديوى وعساكر الشريف ومن خلفه حرس الدولة .

ثم تناول البرنس كمال الدين حسين ومعه جميع الحاشية وأنجال الشريف طعام الغداء على الطراز الأفرنجى ، أما فى العشاء فقد رأس المأدبة الخديو وأبدى شكره لأولاد الشريف على تلك الحفاوة . ثم بارح سموه بحرة ممتطياً جواده ومعه الحاشية قاصداً مكة . وبالقرب من قهوة البستان استقبله أحمد خيرى باشا ، وعطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ، وقومندان العساكر الشاهانية . وكان الشريف حسين أمير مكة منتظراً سموه فى القهوة المذكورة ، وسار برفقة سموه مع بعض الأشراف إلى السرادقات التى أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالا بسموه . وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار فى انتظاره ، وعند نزوله عن جواده فى السرادق المخصص له قدم له كبار القوم ومن بينهم أعضاء بلدية مكة ، فأبدى الخديو شكره للجميع .

وبعد تناول القهوة سار إلى مكة محفوفاً من الجانبين بالجنود العثمانية ، حتى وصل إلى قشلاق الحميدية ، وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوى . ولم أحضر الاستقبال لمرضى . ودخل سموه مكة من باب جرول حيث كان حرس المحمل واقفاً لأداء السلام .

وسار فى طريق الشبيكة ومر أمام التكية المصرية التى كانت مزينة بالأعلام والمصابيح، وكذلك دار الامارة ودار البلدية وغيرها، وكان الطريق مزيناً، ووصل إلى باب الحرم الشريف فجر يوم الخميس ١٦ ديسمبر. وصلى الصبح مع الامام المالكى، ثم طاف طواف القدوم وخرج للسعى بين الصفا والمروة، وكان الشريف قد عرض عليه أن يقوم بالسعى راكباً، ولكنه أبى وأراد أن يكون كباقى الحجاج، وبعدئذ نزل فى دار الامارة وهناك قال له الشريف: « أنت تقيم فى ملكك؛ لأن هذه من آثار جدك محمد على باشا. » فشكره ثم انصرف.

وعند طلوع الشمس أطلقت المدافع ترحيباً بمقدم الجناب العالى ثم تبادل الزيارة مع الشريف، وجاء بعده القائم بأعمال الولاية أمين بك. وبعد الغروب طاف ببيت الله المعظم.

ولما وصلت الوالدة ومن معها بموكبها إلى مكة فى الغروب أطلقت المدافع، وعزفت الموسيقات واستقبلتها الجموع أحسن استقبال. ونزلت فى دار بناجا باشا. وبعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ثم سعت فى عربتها مع البرنسيسات.

تشريفات وزيارات: وفى يوم الجمعة ١٧ منه وفد المصريون إلى دار الامارة لكتابة أسمائهم بسجل التشريفات، ورد الخديو الزيارة إلى القائم بأعمال الولاية. وكانت فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبى الطريق إلى بابها، ولما وصل الركب عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى. فأسرع القائمقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه، وهناك قدم له العلماء والمأمورون الملكيون والعسكريون، وأعضاء المجلس البلدى، والأعيان والتجار، ثم زار سموه التكية المصرية وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها. وأكل من خبزها ثم عاد إلى دار الأمارة وزار الشريف.

ولما آن وقت الظهر قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة، وأنعم سموه على الخطيب بخلعة سنية. وفى أثناء الصلاة هطلت الأمطار فاستبشرت الأهالى لأنهم كانوا محرومين منها مدة طويلة.

وفى ١٨ منه زار الأماكن المباركة مع حاشيته وزار المحمل المصرى فى جرول، فاستقبل استقبالا فخما وقدم لسموه أمير الحج جميع ضباط المحمل وموظفيه. ثم زار بعد ذلك مولد النبى صلى الله عليه وسلم ثم مولد سيدنا على كرم الله وجهه ثم عاد للسراى.

وبعد الظهر استقبل كثيراً من الزائرين. وبعد الغروب قصد بيت الله الحرام،

ووضع المدرج فصعد ووصل هو والحاشية فى محل فوق الكعبة . وقد أوقدت الشموع فيه . وبعدالدعاء المأثور نزلنا وعدنا .

وفى مساء ١٩ منه أولم سموه وليمة للشريف وأنجاله وأمين بك وعلية القوم وكبار المأمورين والقاضى والمفتى وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية . وبعد العشاء والاستراحة فى البهو الكبير خطب أمين بك خطبة بليغة رحب فيها بقدوم سموه .

وفى ٢٠ ديسمبر تبادل الزيارة مع دولة الشريف وزاره كثير من الزائرين وفى المساء طاف بالكعبة .

وفى يوم التروية خرج سموه من مكة إلى عرفة راكباً جواداً بملابس الاحرام مع حاشيته وكلهم محرمون . وكان يرافق سموه عبدالله بك نجل الشريف ومعه كثيرون من علية الأشراف . وتقدمت هذا الركب فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى تتبعها فرقة من جند البيشة (من عرب الحجاز) على هجنهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون أناشيدهم البدوية وباقى الركب يلبى قائلا : « لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . وكان هذا الهتاف الروحى الرنان ، بنغماته المؤثرة ، وما يتجلى فيها من آيات الخشوع ، ينفذ الى أعماق القلوب ، ويحدث فى النفس أعمق الآثار . وكان يحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس الخديوي . وقد استراح سموه بسرادق الشريف الخصوصى بمنى وبعد ذلك توجه إلى مسجد الخيف . وصلى الظهر ثم توجه لزيارة والدته بمنزل الشريف هناك ، ورجع إلى السرادق بعد صلاة العصر . وبعد صلاة صبح يوم ٢٢ ديسمبر ركب فى موكبه إلى عرفة فوصلناها الساعة الحادية عشرة صباحاً ونزل سموه فى السرادق الذى أعده الشريف له . وأما الحاشية فنزلت فى سرادقات أخرى . وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب الخديو جواده ، وسار والى يساره دولة الشريف ومن خلفهما البرنس كمال الدين ووكيل الولاية وجم غفير من كبار الأشراف ورجال الدولة وحاشية سموه ، حتى وقفنا حذاء جبل الرحمة على مرتفع ، وقد اجتمعت هناك ألوف الحجاج ، والكل فى خشوع يلبون ويسألون الله ما يريدون . وهنا يعجز القلم عن تصوير هذا المنظر الرائع الذى تمتزج فيه آلاف الأنفس والأرواح فى صعيد واحد . وتتجه كلها إلى وجهة واحدة ، هى مقام العلى الأعلى . وما زلنا وقوفاً هناك حتى أفاض الناس فأفضنا معهم .

وكانت إفاضة الجناب العالى من عرفات من الفخامة بما لم يشهد له مثيل . وما كاد يتحرك المحملان حتى سار سموه وإلى جانبه الشريف ثم من فى معيتهما من الأمراء والعظماء فى ركب فخم رهيب ، حتى وصلنا إلى المزدلفة ونحن فى غاية ما يكون من الراحة وسارت صاحبة الدولة الوالدة والبرنسيسات فى موكب فخم آخر .

استعراض حرس المحمل : ولما وصلنا جميعاً الى المزدلفة نزلنا فى الأمكنة التى أعدت لنا وقضينا فيها ليلة النحر ، وبارحنا فجر يوم الخميس ١٠ ذى الحجة الموافق ٢٣ ديسمبر الى منى ورمينا جمرة العقبة وتحللنا من الاحرام ، ثم صلينا صلاة العيد ونحرت الضحايا الكثيرة بحضور الخديو ، ونزلنا مكة وطفنا طواف الافاضة ، ثم تغدى سموه فى دار الأمارة وعدنا الى منى بعد صلاة العصر .

وفى يوم الجمعة ١١ ذى الحجة والموافق ٢٤ ديسمبر احتفل بقراءة فرمان الشريف وذلك فى السرادق المعد للجناب الخديوى ، فجلس سموه فى الوسط وعن يساره الشريف ثم أمين بك ثم أنجال الشريف وعلية الأشراف ، وعلى يمين سموه البرنس كمال الدين حسين فأنا ثم عزت باشا وخيرى باشا ثم موظفو المعية . وبعدئذ حضر الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية فقام مكتوبجى الولاية وقرأ الفرمان بالتركية ثم قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته بالعربية . وعقب ذلك فك غلاف الخلعة وألبسها أحد المهمندارين للشريف ثم أمر الجناب العالى بتوزيع الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعاً من الخديو بكل تجلة واحترام .

وبعد ذلك استعرض حرس المحملين الشامى والمصرى ، وقد لمح سموه عساكر على بن دينار سلطان دارفور مع رئيسهم وقد أتوا بمحملهم وراء الصفوف ، فاستدعى سموه رئيسهم . وبعد أن لاطفه وحياه أمره بأن يسير بجنده فى هذا الاستعراض فلبى الدعوة . وبعد نهاية الاستعراض استقبل الخديو المهنئين له بالعيد فى سرادقه ، ثم رد الزيارة للشريف . وبعد تبادل التهانى ركبنا والشريف معنا إلى رمى الجمرات وعدنا إلى مقرنا . وفى المساء أعدت وليمة عشاء للشريف وعظماء قومه .

وفى أثناء الطعام كانت الموسيقى تعزف وسهام الألعاب النارية تشق كبد الفضاء وقضينا يوم ٢٥ ديسمبر بمنى .

وفى ٢٦ منه بعد صلاة العصر نزلنا إلى مكة وبتنا بها . وفى ٢٧ منه وزعت الصدقات والهدايا من الخديو والوالدة وقامت الحاشية عند الظهر إلى بحرة ، وبعد صلاة

العشاء طاف الخديو وبعض رجال المعية طواف الوداع .

ومما أذكره أن الحجاج المدنيين عند دخولهم مكة كانوا ينشدون بنغمة طلية النشيد الآتى :

يا سلام اكتب سلام	بين زمزم والمقام
فاطمه ست النسا	وعلى سيد الاكرام
ومحمد بن عبد الله	يا قارىء كتاب الله
اقرأ الحمد باسم الله	أيا داخل الجنة
خبرنى بما فيها	فيها الروح والريحان
دار الله لا حسد فيها	ومحمد وعلى فيها
فيها القبة الخضرا	فيها طير من جوهر
يبغرغد بين حواليها	سيدى الحاج يا شربيت
أما بشاره والا عليت	والا عروسه ما جينا
فك الكيس واعطينا	سيدى الحاج يا عكه
ربى يوصلك مكه	من مكه للمدينه
من المدينه لبلادك	من بلادك لأولادك
زمزمى والطائرى	شيخى عبد القادر
والنبى من عادته	فرشوا سجادته
يا صلاة الله عليه	كلكم صلوا عليه

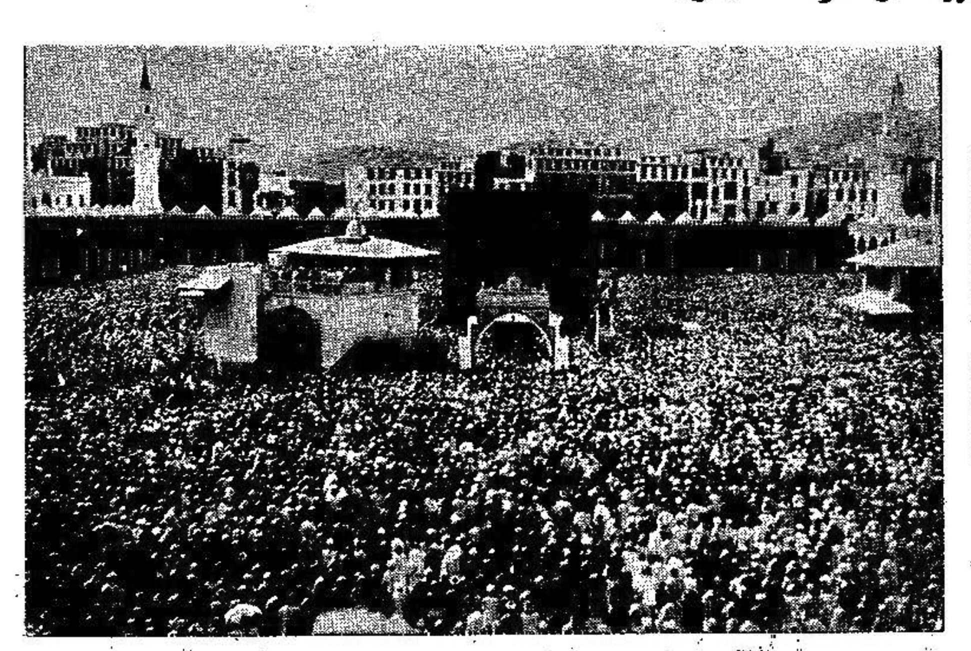
ثم يصيحون : يا حى .

وعند طواف البدو حول الكعبة كانوا يهرولون صارخين : « اغفر اغفر إن لم تغفر من يغفر ؟ » وكذلك أذكر أنه عند تجوالى فى حوارى مكة وجدت أسواقاً لمبيع الجوارى والعبيد بدون مراقبة ، وأيضاً تعرفت بأستاذ يابانى مسلم فى جامعة طوكيو وعلمت منه أنه أسلم منذ سنوات بعد أن قرأ القرآن مترجماً إلى الانجليزية فانجذب إليه وكان يتكلم العربية بصعوبة .

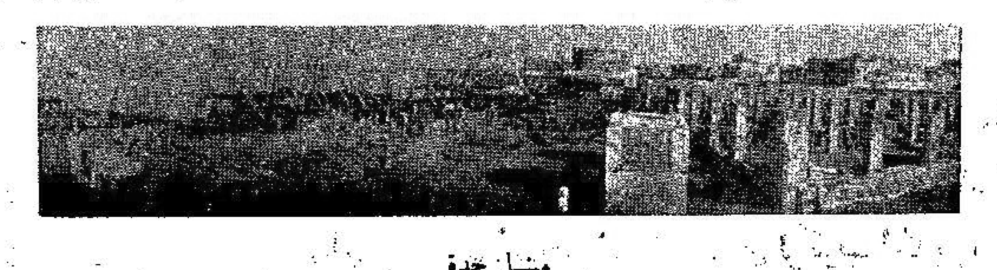
وبعد أن خرجنا من باب مكة وجدنا الشريف وأنجاله وعظماء القوم فى الانتظار لوداعنا . وصحبنا الشريف ناصر ، الذى كان تعين مهمنداراً للخديو من قبل الشرافة العظمى مدة وجود سموه بالحجاز ، وقد أعدت الحمير الحصاوى لركوب الخديو ومن

معه من الحاشية . وكان منظر الصحراء فى غاية البهجة لاكتمال القمر ، والسرور شامل . وكانت حوافر الحمير تغوص فى الرمال وتكبو ويقع بعض راكبيها فيضحك الباقون عليه ، ومع مزيد حرصى فقد وقعت . ولم تمض برهة حتى وقع الخديو أيضاً ولكن من يقع لم يكن يصاب بسوء . واستمرت هـــذه التسلية حتى وصلنا بحرة فى منتصف ليلة ٢٧ ديسمبر واسترحنا قليلا . ثم ركبنا إلى جدة فوصلناها يوم ٢٨ منه . وقد استقبلنا فيها قائمقامها وقومندان عساكرها مع كثير من الأعيان وسرنا جميعاً حتى محل الكورنتينة وركبنا زورقاً بخارياً إلى المحروسة ، وكانت الوالدة قد سبقتنا إليها مع حاشيتها . أما باقى رجال الحرس والمعية فقد نزلوا بالباخرة الرحمانية التى كانت فى انتظارهم .

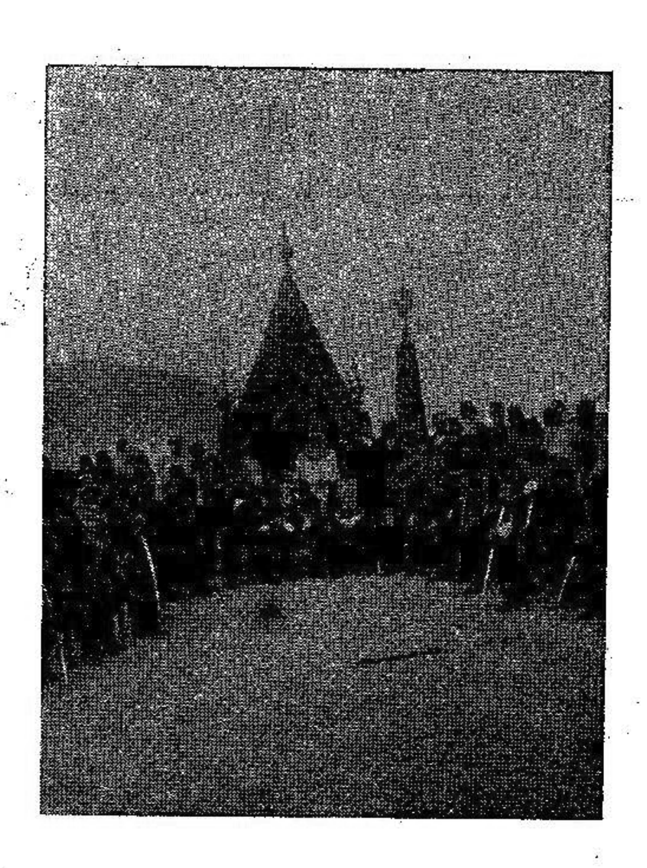
ثم استقبل الخديو فى اليخت أنجال الشريف وقائمقام جدة وقومندان عساكرها ثم قناصل الدول وكانوا قد حضروا بصفة رسمية لتوديع سموه فشكرهم على رقتهم وأرسل برقيات الامتنان والشكر إلى جلالة السلطان ومقام الصدارة العظمى ودولة الشريف وحكومة الحجاز .



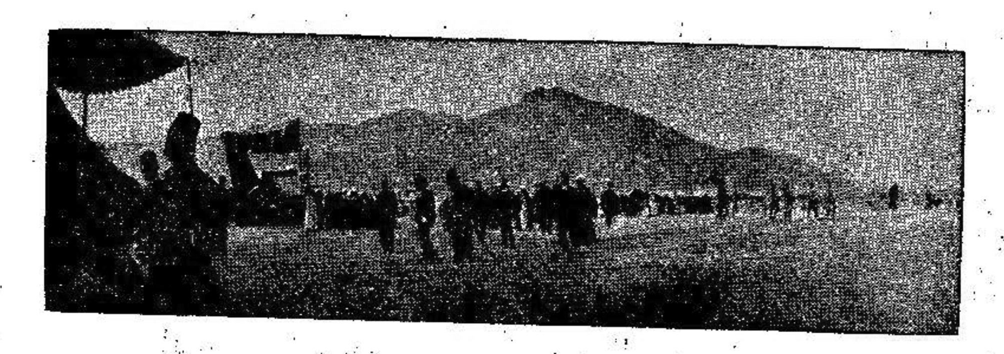
الكعبة



ميناء جدة

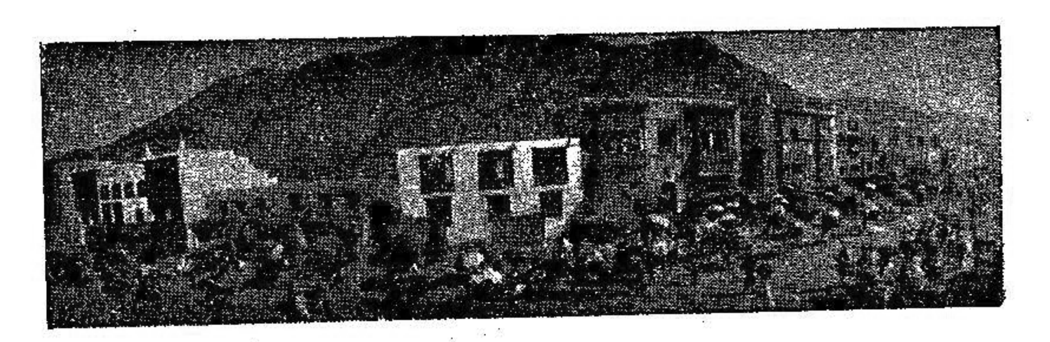


المحمل الشريف

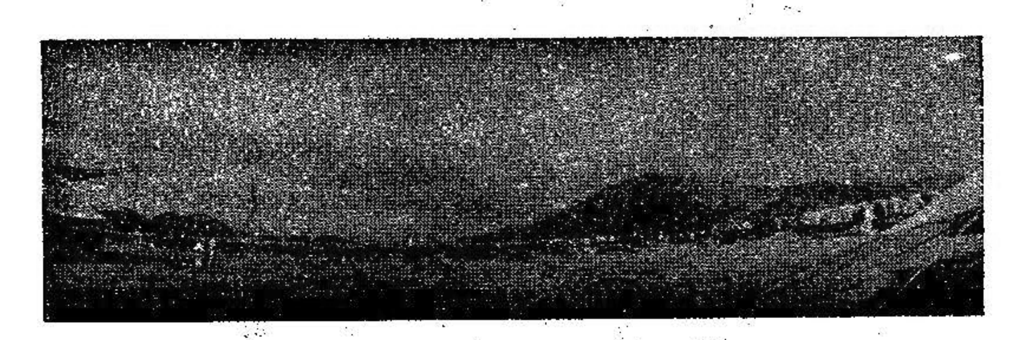


بحرة

منى



منظر عمومى لمنى والحجاج مخيمون فيه



الحجاج على جبل الرحمة بعرفات

وقامت المحروسة من جدة إلى الوجه فوصلناها ظهر يوم ٢٩ منه .

وفى ٣١ منه نزلنا إلى البر سالمين فاستقبلنا قائمقام الوجه وسليمان باشا أبو رفادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالى ، فركب الخديو مع بعض رجال المعية الهجن فى ركب حافل من عربان هذه الجهة ، أما باقى الحاشية فكانوا فى شقادف فوصلنا فى اليوم الأول من يناير سنة ١٩١٠ مكاناً به نبع ماء فاسترحنا وأمضينا اليوم هناك فى الخيام المعدة لنا . وفى اليوم الثانى ركبنا حتى وصلنا إلى منبع ماء آخر فاسترحنا فيه أيضاً وأمضينا الليلة . وفى اليوم الثالث وصلنا إلى مسيل النجد . وقد وجدنا هناك أورطة من الجيش العثمانى ، كانت أتت لحراسة الخديو من قِبل الدولة وسارت معنا حتى وصلنا خشم يلع . وفى يوم ٤ منه ركبنا بعد صلاة الصبح إلى شرفة النجد فى أرض صخرية وعرة المسالك ، يصعب السير فيها على الخيل والبغال والحمير والجمال ، حتى إن أحد سوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارتطم رأسه بحجر فانكسر وغاب شعوره . وقد مررنا على رأس الحرة وهى قمة عالية سوداء تشرف على واد ضيق فرشت أرضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء ، وما زلنا سائرين فى أراض جبلية وعرة حتى وصلنا النجوة .

وفى ٦ يناير وصلنا إلى محطة البدائع الساعة العاشرة صباحاً فاستقبل سموه عدة من الرجال الرسميين والأشراف والمشايخ فشكرهم وتوجه معهم إلى صيوانه الخاص واصطفت فى الطريق فرقة من الجنود البيادة العثمانيين ، وقد أمر الخديو بتوزيع الكساوى على من كان فى خدمة الركاب الخديوى من الضوية والسقايين والعكامة والفراشين والخيمية ، وقد أمر الخديو بسفر الحرس السوارى الخديوى وبعض بلوكات البيادة إلى محطة العلا لانتظار عودة سموه بها ، كما أمر بتجهيز قطار خاص يقوم مساء ذلك اليوم إلى المدينة المنورة بجانب من الحرس والخدمة وبعض رجال المعية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة .

أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدائع صباح ٧ يناير ، وعندما وصل إلى محطة هدية بلغه أن السيول قطعت الطريق فرجع القطار الأول إلى محطة هدية المذكورة وانتظر بها .

وكان يوم ٨ يناير هو يوم عيد الجلوس ، ولكن الجناب العالى لم يرغب فى عمل احتفال فى هذا اليوم ؛ وتقدم لبيب بك البتانونى ، بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عنا جميعاً بالتهنئة لسموه .

وفى ٩ ينـاير وصل الخبر باصلاح الطريق ، فأمر سموه بقيام القطار الأول وكذلك القطار الخديوى حتى محطة الحفيرة حيث بات القطار الأول بها ، وأما القطار الخاص فبات بمحطة البوير التى قبل المحطة السالفة .

وفى ١٠ منه قمنا فوصلنا المدينة فى الساعة السادسة مساء تماماً ، فاستقبل سموه على رضا باشا محافظ المدينة وأبلغه سلام الدولة العلية وتهانى الحكومة المحلية ، والشريف شحات وكيل شريف مكة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها وكثيرون غيرهم ، وأطلقت المدافع إيذاناً بالوصول . ثم نزل سموه فقدم له المحافظ المستقبلين الذين حضروا واحداً واحداً فشكرهم ، وسار ومن خلفه المحافظ والبرنس كمال الدين ورجال المعية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة ، بين صفوف العساكر التى كانت تؤدى التعظيم وموسيقاها تعزف السلام الخديوى . فدخلنا من باب العنبرية حتى وصلنا إلى الصيوان الخصوصى الخديوى ، وهناك استقبلهم سموه بكرمه وإيناسه وشكرهم شكراً جزيلا . وبعد الاستراحة زار مع البرنس والحاشية الحرم الشريف وأدى صلاة المغرب وقام بواجب الخدمة بالمقصورة الشريفة وكان الخشوع متملكا القلوب .

وزار الوالدة فى منزل شيخ الحرم الذى خصص لاقامتها ثم عاد إلى سرادقه .

وكان عباس مدة وجوده بالمدينة يكثر من صلاته فى الحرم ويؤدى الخدمة بايقاد القناديل فى الحجرة الشريفة مساء وإطفائها صباحاً مرتدياً فروجية بيضاء ويشد عليها حزاماً ويلف رأسه بعمامة على نظام خدمة الحجرة ثم يدخل من باب البتول .

وفى ١١ يناير بعد صلاة الفجر فى الحرم قصدنا البقيع وهو مقبرة المدينة وزرنا بها قبة سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا الامام مالك وسيدنا ابراهيم ثم زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا العباس وغيرهم . وبعد الظهر زرنا التكية المصرية وقصد سموه دار الحكومة العثمانية لرد الزيارة لمحافظها .

وفى ١٢ منه وبعد صلاة الفجر وأداء الخدمة ، قصد سموه مسجد قباء ثم عاد قبل الظهر إلى المسجد الشريف فصلى الظهر ورجع إلى صيوانه وأمضى اليوم فى استقبال الأعيان .

وفى١٣ منه أدى الخدمة وقصد زيارة سيدنا حمزة . وفى اليوم التالى — بعد أداء الخدمة وصلاة الصبح — رجع إلى المعسكر المصرى لاستقبال الزائرين ثم قصد الحرم وصلى الجمعة .

وبعد أداء الصلاة خطب السيد محمد الببلاوى الخطبة الآتية قبالة المقصورة الشريفة أمام الخديو والحاشية : « الحمد لله الذى ألف بين قلوب عباده المؤمنين ، ورفع درجات من أحسن فى عمله ، وأخلص لله فى سره وجهره وأشهد أن لا إله إلا الله ، شهادة عبد معترف بربوبيته ، مقر بوحدانيته ، راج رحمته ، خائف من عذابه ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هادى الخلق الى الحق ، ومرشدهم الى طريق السعادة ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين ألف الله بين قلوبهم بالإسلام ، فتعاونوا على البر والتقوى ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب؛ قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

« عباد الله ، إن سعادة الأمم ، وارتقاءها وتقدمها ، وبلوغها غاية الشرف ، ونهاية المجد ، إنما يكون بائتلاف أفرادها ، وتضامنهم فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، وتطهير قلوبهم من دنس الحسد ، ودرن الأحقاد ، حتى يكونوا — وإن تباينت مساكنهم ، وتباعدت أماكنهم — كجسم واحد إن ألم منه عضو ألم لأجله سائر الأعضاء ، إذ ذاك يكون المسلمون

آباء رحماء، وأبناء بررة، يشملهم الله برحمته، ويعمهم باحسانه؛ لهذا آخى بعد الهجرة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بين أصحابه، فجعل لكل مهاجر أخاً من الأنصار، فتواصلوا وتحابوا واتحدوا فى إعزاز دين الله؛ وإعلاء كلمته، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، وما ادخر لهم فى دار السعادة خير وأبقى. وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المحبة، وهذا الاخلاص، من علامات الايمان. فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.»

«فهل منا من أخلص وده لأخيه! هل منا من أحب لأخيه ما يحب لنفسه! هل منا من مد لأخيه يد المعونة، إن رآه سالكا طريق خير وهدى! هل منا من أشفق على أخيه ونصحه وقومه إن رآه سالكا طريق غى وضلال! لم يكن شيء من ذلك، بل اتخذنا الحقد قريناً، والحسد سميراً، ولم نعن على عمل خيرى، ولم نساعد فى شيء من أعمال البر، واتبعنا الشيطان، وكان الشيطان لربه كفوراً. والأعجب من ذلك كله، أنه إذا وفق الله رجلا منا للقيام بعمل يعود علينا خيره، ويشملنا نفعه، نقف فى وجهه، وننسفه رأيه، حسداً من عند أنفسنا. والواجب يقضى علينا أن نعرض عمل العامل منا على العقل والشرع، فما وافقهما قبلناه من صاحبه وشكرناه عليه، وما خالفهما رددناه إلى صاحبه، ونبهناه إلى مواطن الخطأ فيه؛ لكن بالأدب والحكمة، لا بالشدة والغلظة، كى تقدم نفسه على الابتكار، ولا تحجم عن عمل تظنه خيراً عاماً.

«فيا عباد الله، اتقوا الله وكونوا إخواناً متناصرين، وأعواناً متساندين. وإياكم والدخول فيما لا يعنى، والاشتغال بما لا يفيد؛ لعل الله يصلح حالنا، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وقد كان لهذه الخطبة تأثير عميق فى النفوس، حتى إن شيخ الحرم أثنى على الخطيب وهنأه.

وبعد ذلك بارحنا الحرم، وتوجه عباس لزيارة والدته.

وفى ١٥ منه أدى سموه الخدمة، وصلى الصبح، وزار زيارة الوداع، وقصدنا المحطة حيث اكتظت بالمودعين، فشكرهم وصافحهم، وتحرك القطار إلى تبوك؛ وكان قطار المعية قد سبق قبل القطار الخاص.

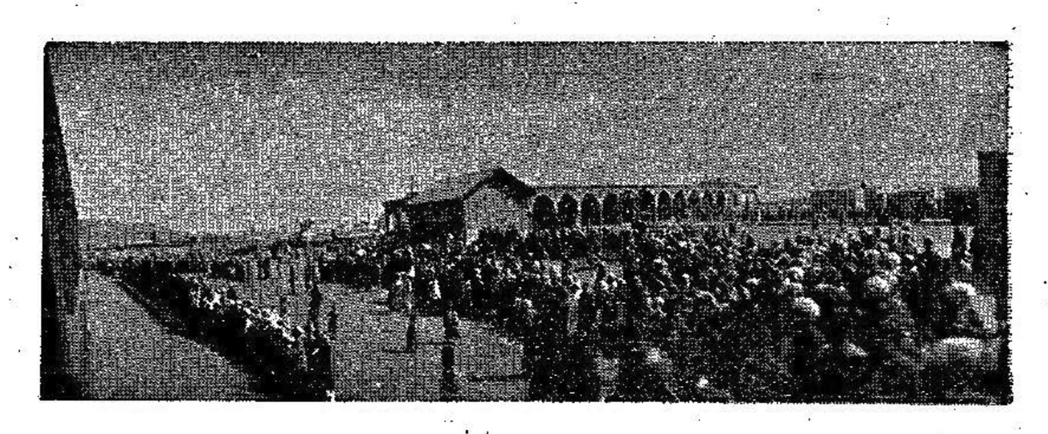
ومما أذكره أن عباساً فى مدة إقامته فى المدينة كان يعامل بعض رجال المعية معاملة

سيئة بالشتم واللعن ، وبالأخص حسين محرم باشا ، لهفوات بسيطة ؛ وكنا نتساءل عن هذه الحدة ، فقال أحدنا إنه لاشتغال فكره بما عساه يحدث فى مصر .

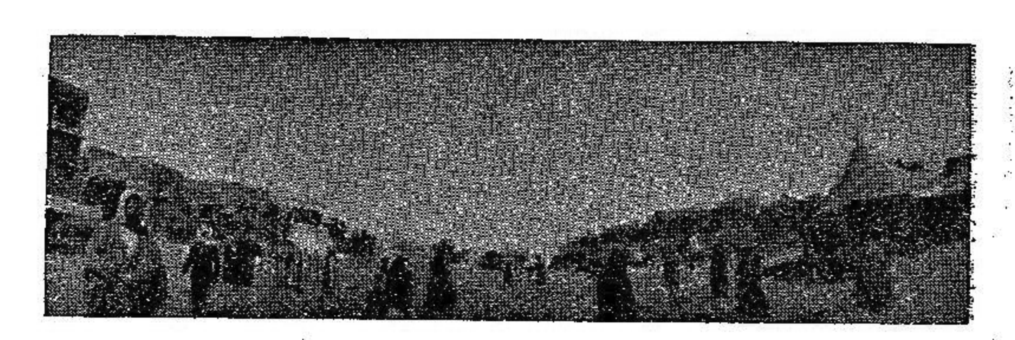
وفى صباح ١٦ منه وصلنا تبوك ، ودخل القطار الخاص إلى الكورنتينة ونزلت به الوالدة . أما الخديو والمعية فاننا نزلنا فى صواوين خصوصية ؛ ومكثنا فى تبوك خمسة أيام عانينا فيها كثيراً من شدة البرد .

وقد حضر إلى تبوك منيسر باشا الألمانى ، باشمهندس الخط الحديدى الحجازى ووفا بك قائمقام معان ، فلم يتمكنا من مقابلة الخديو ، عملا بتعليمات الكورنتينات فبقيا فى الضيافة حتى يوم ٢١ منه حيث قابلهم .

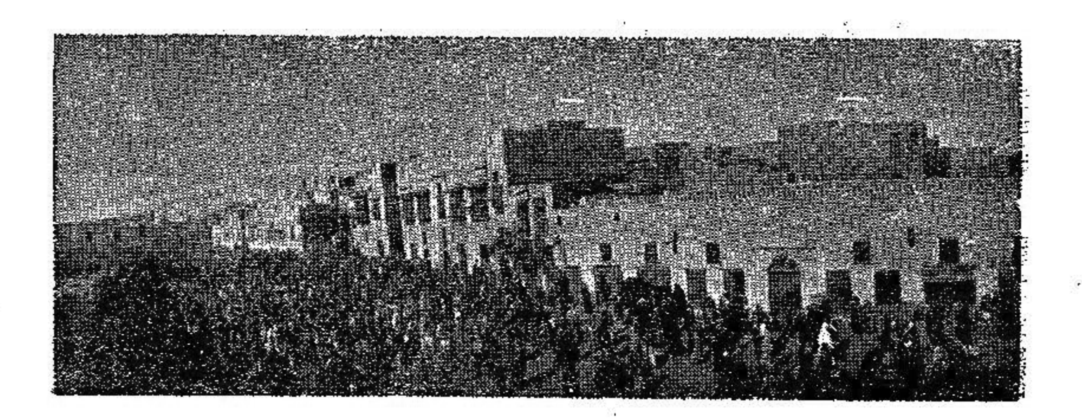
وبعدئذ قمنا من تبوك فوصلنا معان فى منتصف الليل ، وهناك صدر الأمر للحرس بالقيام إلى العقبة فالسويس براً . وفى معان تناول سموه الغداء فى دار منيسر باشا .



استقبال الخديو بمحطة المدينة المنورة



المدينة المنورة



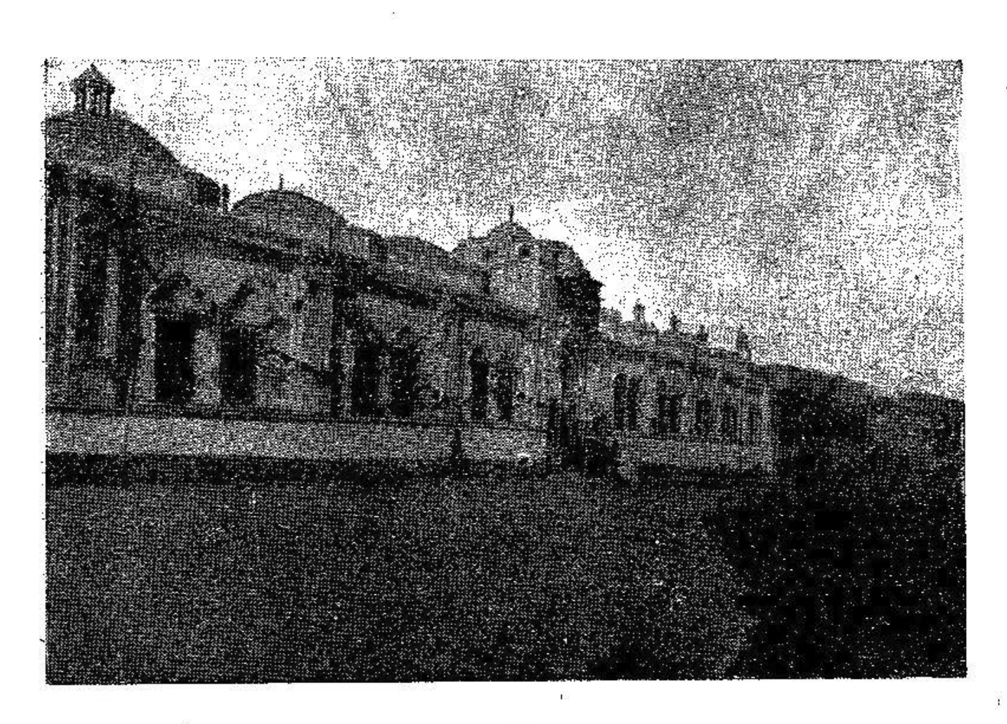
الركب المدنى وهو داخل ألمدينة فى عودته من الحج



تبـــوك



محطة معان



التكية المصرية بالمدينة المنورة

وفى الساعة الثالثة من مساء يوم ٢٢ منه تحرك القطار الخاص إلى حيفا ، فوصلناها بعد ظهر يوم الأحد ٢٣ منه ، فاستقبلته بها الوفود ، وفى مقدمتهم مأمور الدولة وقناصل الدول والعلماء والمتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية ، وأطلقت المدافع تحية بمقدمه ، وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ؛ فنزل سموه إلى بهو المحطة الذى أعد لاستقباله ، وتناول القهوة ، ثم ركب القطار إلى الأسكلة ، ومنها بزورق بخارى إلى المحروسة

وقد أمر سموه بترحيل فقراء الحجاج المصريين إلى بور سعيد على نفقته باحدى بواخر الشركة الخديوية . وفى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم تحركت المحروسة ، فوصلنا الاسكندرية بعد ظهر يوم الاثنين ٢٥ يناير ، وكان الاستقبال فخما عظيما . وبذلك انتهينا من تأدية فريضة الحج .

وكان قد رافق عباس فى حجه الكاتب القدير محمد لبيب البتنونى بك لتدوين الرحلة الحجازية . وبعد رجوعه أخرجها بالتفصيل وزاد عليها تعليقات تاريخية قيمة عن هذه الأصقاع ، وجعلها فى سفر جليل باسم « الرحلة الحجازية » .

مسألة امتياز قناة السويس فى الجمعية العمومية . سبق أن قدمنا أن مسألة مد امتياز قناة السويس تقرر عرضها على الجمعية العمومية لأخذ الرأى فيها على شرط

أن يتولى سعد زغلول باشا الدفاع عن وجهة نظر الحكومة فيها ، وقد انفضت دورة الجمعية والمسألة لا تزال تحت البحث .

وفى ٧ فبراير افتتح سمو الخديو دور الانعقاد السنوى كالمعتاد . وكنت بمعية سموه مع رئيس النظار ومحمود شكرى باشا وحسين محرم باشا . وقد ألقى سموه على الأعضاء الكلمة الآتية :

« أيها السادة . نهدى إليكم تحياتنا ونبدى لكم سرورنا من اجتماعكم فى هذا اليوم.

« دعوناكم لأخذ رأيكم فى الاتفاق الذى يراد عقده مع شركة قناة السويس ، فان هذه الشركة قد عرضت على حكومتنا منذ سنة امتداد أجل امتيازها ، وبعد المخابرة الطويلة أمكن الوصول إلى المشروع المطروح أمامكم . وقد علمتم أن حكومتنا مجمعة على قبوله إذا رضيت الشركة بالتعديلات التى اقترحتها الحكومة عليها . فالغرض إذاً من اجتماعكم إنما هو البحث فيما إذا كان من مصلحتنا مد أجل الامتياز إلى أربعين سنة مع اقتسام الأرباح فى هذه المدة بين الحكومة والشركة مناصفة ؛ وفى مقابل إعطاء الشركة نصف الأرباح عن المدة الجديدة تدفع للخزينة مبالغ موزعة على الستين سنة الباقية من مدة الامتياز الحالى وقد قدر هذه . القيمة بعد البحث الدقيق أشخاص من ذوى الخبرة فى الشئون المالية ، وهم يرون أنه إذا حصلت الموافقة على التعديلات المذكورة تكون الفائدة التى تنالها مصر موجبة لتمام الرضاء وأن ذلك غاية ما يصح طلبه من الشركة .

« ولا يخفاكم أن هذه المسألة ليست من المسائل التى يقضى القانون النظامى بأخذ رأى الجمعيه فيها ، ولكن نظراً لأهميتها الاستثنائية بالنسبة إلى الجيل الحاضر والأجيال الآتية ، قرر مجلس النظار ألا يبت فيها برأى قبل أن يعلم إن كانت الجمعية العمومية توافق على امتداد الامتياز .

« ونظار حكومتنا مستعدون لاعطائكم البيانات التى ترونها لازمة فى هذه المسألة ، ونحن واثقون أن كل واحد منكم يشعر بالمسئولية التى يتحملها أمام بلاده عند نظره هذا المشروع المهم والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير البلاد . »

وبعد انتهاء الخطبة هتف الرئيس والأعضاء لسموه وعدنا للسراى ؛ ثم حضر الأعضاء لشكر سموه على افتتاح الجمعية فقال لهم جنابه :

«إننى أرغب أن أجمع الجمعية العمومية كلما عنّ لى عمل من الأعمال الهامة . والمسألة المطروحة الآن أمام الجمعية هى من المسائل الدولية التى لم يسبق للجمعية النظر فى مثلها بمقتضى القانون النظامى ، ولكنى آمل من الأعضاء ألا يكون هناك تأثير عليهم من الاشاعات والأقاويل ، وأن يجعلوا نصب أعينهم مصلحة البلاد وحدها ، لأن الآراء التى سيبدونها فى هذه المسألة ستعرض على الرأى العام الأوربى الذى يحكم حينئذ حكمه على الجمعية التى هى هيئة البلاد النائبة ، وعنوان كفاءتها وفهمها للأمور .»

وفى هذا الوقت كانت المظاهرات تطوف شوارع العاصمة هاتفة ضد مشروع قناة السويس وضد الاستبداد ، وضد جريدة الأهرام لأنها تروج للمشروع ؛ وكانت صحف الحزب الوطنى والجريدة تكتب بلهجة حادة ضد مروجى المشروع ، وتتهم بطرس باشا خاصة والنظار عامة بالخيانة والاجرام فى حق الوطن ، حتى لقد امتد اتهامها إلى الخديو نفسه بعد إلقاء خطبته السابقة ، وكان الجو مكهرباً من جراء هذه الحملات وتوالت هذه المظاهرات الحماسية عدة أيام ، وانتهت بمقتل بطرس باشا كما سيأتى .

تقرير الجمعية العمومية : وقد تألفت لجنة خاصة فى الجمعية العمومية لفحصه ، وفى يوم ٢٢ مارس عرضت اللجنة تقريرها على الجمعية وخلاصته ما يأتى :

١ — أن المشروع المعروض على الجمعية لم يستوف الاجراءات القانونية ، فان الحكومة والشركة لم تتفقا عليه اتفاقا صريحاً .

٢ — وأنه لا يحق للجمعية العمومية تعديل المشروع لأنه ليس اقتراحا من الحكومة المصرية ، بل هو مجرد مشروع تعاقد بين الحكومة والشركة .

٣ — ومع ذلك فان هناك غبناً فاحشاً فيه تقدره اللجنة بنحو ١٣٠٫٥٩٨٫٠٠٠ جنيه أصلا وفائدة على قاعدة حساب المستشار المالى الذى قدمه فى المشروع .

٤ — أنه لا حقيقة للمخاوف التى تتوقعها الحكومة فى حالة رفض المشروع كأن تعلن الدول أن القناة دولية مثلا .

٥ — لا توجد ضرورة مالية ملجئة لهذا التعاقد بالغبن الفاحش ولاسيما وهو واقع على مستقبل بعيد ، لا بد فى الحكم عليه من الخطأ العظيم الذى لا يقبله الجيل الحاضر ولا يرضى بتحمل تبعته أمام الأجيال القادمة ، ومثل هذا التعاقد لا يصح إلا إذا ظهر ربحه ظهوراً بيناً .

٦ – أنه حتى اليوم لم تشترك الأمة فى تدبير الشئون المالية حتى تضمن استخدام المبلغ المقابل لمد أجل القناة فى أغراض مثمرة ، وهو أقل ما يطلب فى مثل هـذه الحالة

وبناء على هذه الأسباب قررت اللجنة رفض المشروع بالاجماع .

ولما انتهت اللجنة من تلاوة قرارها صفق الأعضاء وحددت الجمعية جلسة أخرى للمناقشة فيه فى يوم ٥ ابريل ، وفيها تقدم محمد سعيد باشا رئيس النظار فألقى بياناً على الأعضاء بأن الحكومة حين قررت عرض المشروع على الجمعية ، قررت كذلك أن يكون رأيها فيه قطعياً بصفة استثنائية ، والحكومة تقرر لهم ذلك قبل النظر فى المشروع حتى يكون لهم كل الحرية فى قرارهم الذى يصدرونه وحتى يقدروا مسئوليتهم أمام هذا الجيل والأجيال القادمة والرأى العام الأوربى . »

ثم وقف بعده سعد زغلول باشا فدافع عن المشروع حسبما تقرر ، وبعد ذلك سمع الأعضاء تقريرين قدمهما صابر باشا صبرى وطلعت حرب بك فى بيان الخسائر الفادحة التى تتعرض لها البلاد من جراء المشروع ثم تقرر تأجيل القرار النهائى يومين.

رفض المشروع باجماع الآراء : وفى ٧ ابريل اجتمعت الجمعية ودارت مناقشات



طلعت حرب بك



احمد محمد خشبه بك

طويلة بين الأعضاء والنظارة ثم أخذت الأصوات فتقرر رفض المشروع بالاجماع .

وكان لهذا القرار وقع عميق فى جميع الدوائر المصرية والأجنبية ، وقد أرضى النزعات الوطنية المتطرفة والمعتدلة على السواء .

حديث للخديو : وفى ١٩ منه تحدث سمو الخديو مع مراسل جريدة الطان حديثاً جاء فيه :

« إننى أحب بلادى وشعبى ، وإن أمنيتى أن أكون حاكما دستورياً ، ومن الأدلة على ذلك منح الجمعية العمومية الرأى القطعى فى مشروع مد امتياز قناة السويس . »

مقتل بطرس باشا . وفى يوم ٢٠ فبراير وصل إلينا فى السراى نبأ خطير وهو إطلاق الرصاص على بطرس باشا رئيس النظار من فتى يدعى ابراهيم ناصف الوردانى المنتمى للحزب الوطنى؛ وذلك عند مغادرة الرئيس لنظارة الخارجية فى الساعة الواحدة بعد الظهر .

وتفصيل الخبر هو أن بطرس باشا اعتاد أن يغادر الخارجية (سلم الحقانية الآن) كل يوم فى الساعة الواحدة . وفى هذا اليوم نزل من الديوان ومعه حسين رشدى باشا وعبد الخالق ثروت باشا النائب العام ، وأحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية وأرمولى بك التشريفاتى بالخارجية ، ثم فارق من كانوا معه عند السلم الخارجى . وبينما هو يهم بركوب عربته إذ دنا منه هذا الفتى « الوردانى » متظاهراً بأنه يريد أن يرفع له عريضة ، وأطلق عليه رصاصتين أصابته إحداهما فى خاصرته والأخرى فى صدره ، وما كاد يلتفت خلفه ليرى صاحب الفعلة حتى أطلق عليه الفتى ثلاث رصاصات أخرى أصابت إحداها عنقه من الخلف واثنتان فى كتفه ، وأطلق رصاصة سادسة أصابت ثيابه .

وكان خلف القاتل أحد سعاة النظارة فقبض عليه ، بينما كان الناظر قد سقط إلى الأرض أمام عربته ، فحمله الحاضرون إلى فناء النظارة ، وحضر على الأثر الدكتور سعد بك الخادم فأخرج الرصاصات من العنق والكتف ، وأفاق الجريح قليلا ، ثم نقل إلى مستشفى الدكتور ملتون بباب اللوق ، وهناك وافاه الأطباء وقرروا إجراء عملية لاخراج الرصاصات الباقية .

ولما وقف الخديو على هذا النبأ بلغ التأثر منه ومن رجال الحاشية مبلغه ، نظراً لما كان يتمتع به بطرس باشا من ثقة الجناب العالى ومحبته له .

وأصـــدر سموه أوامره فى الحال تليفونياً إلى فتحى زغلول باشا باتخاذ جميع الوسائل الممكنة بكل سرعة للعناية بالجريح ، ثم أوفدنى سموه وأحمد خيرى باشا للسؤال عن صحته وإبلاغه أسف سموه وتمنياته فى الشفاء وأن نرسل لسموه أخبار الجريح حتى يزوره بالمستشفى بنفسه .

وبعد قليل من وصولنا حضر سموه ودخل على بطرس باشا فى غرفته ، ثم دنا منه وقبله والدموع تنسكب من عينيه ودعا له بالشفاء ، وكان الجريح أثناء ذلك يقول : « العفو يا أفندينا . مرسى . مرسى . »

ثم غادر سموه المستشفى آسفاً متأثراً بعد أن شجع الجريح وحث الأطباء على بذل كل ما فى وسعهم لانقاذه ، وأمر أن تبلغ اليه الأخبار لحظة فلحظة وبقيت أنا بالمستشفى لهذا الغرض . وبعد ذلك حضر البرنس حسين كامل ودنا من الجريح وقال له : « تشجع » فرد بطرس باشا بقوله : « أنا لا ألوم نفسى على شىء فقد قضيت ما يجب علىّ للوطن . »

وبعد انتهاء العملية لاخراج الرصاص ارتاح الجريح نوعاً ولكن الألم ازداد بعد قليل وارتفعت درجة الحرارة ، وأصبح فى خطر قريب ، ولم تأت الساعة الثامنة والربع مساء ، حتى أسلم الروح بين بكاء الحاضرين .

وفى صباح ٢١ فبراير صدر أمر الجناب الخديوى بأن يكون الاحتفال بجنازة المرحوم بطرس باشا رسمياً .

وفى الساعة العاشرة والنصف صباحاً سار الجناز من مستشفى الدكتور ملتون إلى كنيسة بطريركية الأقباط ثم إلى المدفن .

النظارة الجديدة : وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تم تأليف النظارة الجديدة على الشكل الآتى :

محمد سعيد باشا لرياسة النظار والداخلية ، وسعد زغلول باشا للحقانية ، ويوسف سابا باشا للمالية واحمد حشمت باشا للمعارف ، وحسين رشدى باشا للخارجية ، وسرى باشا للأشغال والحربية .

التحقيق والجانى : وكان المحققون قد تسلموا الجانى منذ ساعة الجريمة ، وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، تلقى العلوم فى المدارس المصرية حتى حصل على

شهادة البكالوريا وتوفى والده فقام بتربيته عمه الدكتور ظيفل حسن (باشا) وأرسله إلى سويسرا لتلقى علوم الصيدلة فمكث فى لوزان سنتين ، ثم ذهب إلى انجلترا فقضى بها سنة وعاد إلى مصر فافتتح بها صيدلية فى شارع عابدين واتصل بالحزب الوطنى ، وهو شاب عصبى المزاج شديد الانفعال .

وقبل أن يفتح معه محضر التحقيق الرسمى سأله وكيل الحقانية : « لماذا فعلت فعلتك بالباشا ؟ » فأجاب غاضباً « لأنه خائن للوطن » فرد عليه بقوله « يا مسكين لو عرفت أنه أكبر وأصدق وطنى فى خدمة البلاد ما فعلت فعلتك » .

وقد تولى النائب العمومى ثروت باشا التحقيق، وسئل عدة أشخاص ممن لهم صلة بالجانى والذين وجدت أسماؤهم أو صورهم بين أوراقه ، وأوراق أعضاء الحزب الوطنى وفى مقدمتهم محمد بك فريد الذى قرر « أنه عرف الجانى منذ سنة ١٩٠٦ فى جنيف حيث كان أميناً لصندوق جمعية الطلبة المصريين بها ، وأن هذه الجمعية أسست لمساعدة الطلبة المصريين الذى يفدون إلى جنيف ، وأن علاقته بالقاتل كعلاقته بكل عضو من أعضاء الحزب الوطنى » .

وقبض على شفيق منصور وعباس حسنى ومحمد الصباحى الطالب بمدرسة رأس التين وعبدالله حلمى المهندس بالأوقاف ومحمد زكى على افندى المحامى الذى تولى رياسة المظاهرة التى تقدم ذكرها ، ثم قبض بعد ذلك على اثنى عشر آخرين .

جمعية سرية : وفى ٢٥ فبراير أطلق سراح ثمانية من هؤلاء المتهمين، وبقى تسعة منهم الوردانى ثبت أنهم أعضاء فى جمعية سرية للقتل السياسى ألفت منذ ست سنوات* وقد ضبط قانون الجمعية بين أوراقهم ، كما ضبط خطاب وارد إلى شفيق منصور يقدم له فيه مرسله ابراهيم ناصف الوردانى بأنه « صيدلى كيماوى بارع وعارف بتركيب الديناميت » .

وسمعت النيابة أقوال على الشمسى افندى وخلاصتها أنه رأى الوردانى يوم انعقاد الجمعية العمومية للنظر فى مشروع امتياز القناة وهو ثائر متهيج . وذكر عن أخلاقه أنه شديد الاخلاص لأخوانه حتى إنه كان ينفق عليهم بعض ماله ويدع نفسه فى حاجة

(*) أى منذ وجود مصطفى كامل باشا

وشدة ، وكان يلاحظ فيه الحياء فى مجالسه وقلة الكلام مع شدة الحماسة فى الجدل ولكنه لم يكن يجاوز حدود الأدب فى مناقشاته إذا احتدّ » .

وقد تأيدت أقوال على الشمسى افندى عن تهيج الجانى فى يوم اجتماع الجمعية بشهادة القاضى مراد سيداحمد بك واحمد حجازى بك وغيرهما .

واستدعت النيابة صاحب طوالع الملوك ، لأنه ذكر فى طالعه الذى ظهر منذ ثلاثة شهور أبياتاً ، يؤخذ منها أن بطرس باشا يقتل وينعم على ابنه بالباشوية ويتولى رياسة النظار سعد أو سعيد .

ولما سئل عن ذلك قال إنه لا دخل له فى السياسة ، ولكنه يقدر تقديرات فلكية تدل على مثل هذه الحوادث ، ولو فرض أنه كان عالماً بالمؤامرة فهل كان أيضاً يعرف أن الخديو سينعم على ابن القتيل « نجيب غالى » بالباشوية ؟

نقص القانون : وقد ظل التحقيق حتى يوم ١٤ مارس ثم أصدر النائب العام قراراً باحالة الوردانى والمقبوض عليهم على قاضى الاحالة ، ونظرت القضية بالاحالة فى يوم ٢٢ منه وكان القاضى متولى بك غنيم فأصدر قراره باحالة الوردانى وحده إلى محكمة الجنايات وإخلاء سبيل الآخرين لأن القانون حتى ذلك الوقت كان ينص على إعفاء المشتركين فى الاتفاق الجنائى إذا لم يرتكبوا حوادث بالفعل (١) .

وفى جلسة ٢٠ ابريل نظرت القضية أمام الجنايات وسمعت المحكمة شهادة الشهود ثم قررت انتداب بعض كبار الأطباء لبيان ما إذا كانت العملية التى أجريت للفقيد كانت ضرورية كما قرر الأطباء الذين قاموا بها أم لا .

الحكم بالاعدام : وفى يوم ١٢ مايو سمعت المحكمة تقرير الأطباء وهو يفيد ضرورة العملية . وألقى النائب العام ، ثروت باشا ، مرافعة بليغة قوية ، وقام بالدفاع عن المتهم محمود بك ابو النصر واحمد بك لطفى وابراهيم بك الهلباوى ، وطلب الدفاع فحص المتهم من الوجهة العقلية فرفضت المحكمة هذا الطلب ، وقررت الحكم بالاعدام وأيد هذا الحكم فى النقض .

وقد حاول رجال الحزب الوطنى استصدار عفو من الخديو . وأيدت الصحف الافرنجية والجالية الايطالية بالعرائض والمنشورات هذا الطلب ولكن لم يجد ذلك نفعاً

(١) بعد ذلك بقليل عدل هذا القانون وأصبح مجرد الاتفاق الجنائى جريمة يعاقب عليها .

ومما هو جدير بالذكر أن الفتى المحكوم عليه أبدى ثباتاً مدهشاً حتى آخر لحظة .

روزفلت رئيس جمهورية أمريكا بمصر . كان هـذا الرئيس قد حضر إلى مصر يوم ٢٤ مارس ، فاستقبله من قبل الخديو سعيد ذو الفقار باشا التشريفاتى الأول وزار سموه فى عابدين فرد له سموه الزيارة ثم أقيمت له مأدبة شائقة .

وفى ٢٦ منه أدب له البرنس أحمد فؤاد باشا رئيس الجامعة الأهليـــة المصرية مأدبة عشاء ودعاه لالقاء محاضرة فى الجامعة . فلبى الدعوة وألقى محاضرته فى اليوم التالى وتكلم فيها عن أهمية الجامعة وأنها الطريق القويم للتربيـة الصحيحة ، وتحدث عن واجبات الذين يلون أمرها والطلبة الذين ينتسبون إليها .

وبعـد ذلك تكلم عن فضل بطرس باشـا وأشار إلى أن هـذه الجرائم مكروهة فى نفوس الجميع وأنها وبال على الأمانى الوطنيـة . وتطرق من ذلك إلى الحـديث عن الأمم التى تمنح الدسـاتير وهى لم تزل فى دوز التكوين ، وقال : « إن مثـل هذه الأمم تـكون خطراً على نفسها لأنها لم تنم فيها الصفات التى تمكنها من الانتفاع بالدستـور ، وأن الأمر الجوهرى ليس هو الاسراع للحصول على سـلطة ليس أسهل من سوء استعمالها ، وإنما هو ترقيـة الصفات التى يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة وإن تـكن بطيئة ، وأن هذه الصفات هى التى تجعل الأمة قادرة على حكم نفسها بنفسها » .

ثم أشار إلى الادارة الانجليزية فى السودان (*) وأثنى على اللورد كرومر وسياسته فى مصر .

الوطنيون وروزفلت : وكان هـــذا الخطاب مثار عاصفة من النقد فى المؤيد والجـريدة وصحف الحزب الوطنى ؛ ووجه الشيخ جاويش رسـالة إلى روزفلت يلفت نظره فيهـا إلى أنه فى بلد إسـلامى ، فليس له أن يبشر بحسنات المسيحيـة ، وأن ينسى فضل التعاليم الاسلاميـة ؛ ونظم حافظ ابراهيم قصيدة قوية يذكر فيها روزفلت برأى الأمريكيين فى الانجليز يوم كانوا يحتلون بلادهم ومما جاء فيها :

يا نصير الضعيف : مالك تطرى ... خطة القوم بعـد ذاك النكير !
لم تطيقوا جـوارهم بل أقمتم ... فى حماكم من دونه ألف سور
أنت تطريهمـو وتثنى عليهـم ... نائيـاً آمنـاً وراء البحـور

(*) وكان قد رجع من زيارته للسودان

ليت شعرى أكنت، تدعو إليهم   يوم كانوا على تخوم الثغور؟
يوم سجلتم على صفحات الدهـــــر تاريخ مجدكم بالنور
ووثبتم إلى الحياة وثوباً   ونفضتم عنكم غبار القبور
يا نصير الضعيف حبب إليهم   هجر مصر تفز بأجر كبير.

ووجه محمد فريد بك إلى روزفلت رسالة برقية باسم اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى يظهر فيها استياء البلاد من هذه الخطة التى ترمى إلى تثبيط همة الأمة المصرية عن الاستمرار فى جهادها السلمى للحصول على الدستور.

ووجهت إلى روزفلت أيضاً برقيات الاحتجاج من كثير من الهيئات والأفراد.

وكتب الشيخ على يوسف فى المؤيد خطاباً مفتوحاً إلى روزفلت حمل فيه على مسلكه وخطته وإخلاله بواجب الضيافة، ونشرت ترجمة هذا الخطاب الشهير فى بعض الصحف الأمريكية فكان له وقع كبير فى أمريكا. وكتبت إحدى المجلات الأمريكية الشهيرة إلى الشيخ على يوسف تطلب إليه أن يكتب لها فصلا فى هذا الموضوع يتحدث فيه عن روزفلت، وما كان لزيارته من أثر فى نفس الشعب المصرى؛ فلبى الشيخ الدعوة وبعث إلى المجلة المذكورة بمقال رنان كان من خير ما كتب (١).

سفر روزفلت: وقد غادر روزفلت مصر بعد هذا كله يحمل فى نفسه أثر هذه الاحتجاجات وتلك الردود وما كاد يصل فى طريقه إلى مدينة لنـــدره حتى ألقى فى «جلد هول» عن مصر خطابا فى منتهى الشدة جاءتنا البرقيات بتفاصيله فى يوم ٧ يونيو، وفيه يدعو روزفلت الانجليز إلى تثبيت أقدامهم فى مصر «لأنهم ليسوا حراس مصالحهم فيها فقط، بل هم فوق ذلك حراس مرافق المدنية.» وطعن فى أخلاق المصريين ورماهم بالتوحش والذل، وقال: «إن الانجليز أصلحوا مصر ولكنهم أخطأوا أخيراً إذ مكنوا المصريين من التمتع بشىء من الحرية، فأظهر مقتل بطرس باشا أن هذه غلطة فاحشة يجب أن يتداركها الانجليز قبل فوات الوقت.» إلى غير ذلك من المثالب والمطاعن.

وقد كتبت الجرائد المصرية جميعها ما عدا المقطم منددة بهذا الخطاب، مبينة ما فيه من غلو وتحامل فى فهم المصريين، وما يدل عليه من الحقد والتعصب على الشرقيين.

تصريح للسير جراى: وفى يوم ١٤ يونيو حملت لنا البرقيات تصريحاً للسير

(١) نشرت المؤيد هذا المقال فى عددها الصادر فى ١١ يونيه سنة ١٩١٠ فليراجعه من شاء.


السير إدوارد جراى

إدوارد جراى عن موقف انجلترا فى مصر بعد حادثة مقتل بطرس باشا وبعد خطاب روزفلت على أثر سؤال من أحد النواب. وقد جاء فى هذا التصريح :

« إننى أوافق على جميع الآراء التى أبداها المستر روزفلت بشأن القطر المصرى إلا قوله إن ليننا المتناهى لأعداء الاحتلال قد عرض عمل انكلترا بمصر إلى الضياع، فقد يمكن ألا أوافق على أن عملنا عرضة للخطر، ومن الطبيعى أن ينتقد التأخير الذى حدث فى معاقبة الورداني، ولكن لا يمكن توجيه اللوم إلى القضاة. ومن المتفق عليه أنه يجب حتما أن نستعمل سلطتنا حتى نظهر جلياً أن المصريين الذين يديرون شئون بلادهم برأينا — دون أن تكون لهم مندوحة عن اتباع هذا الرأى — تجب حمايتهم من الاعتداء عليهم بهذه الطريقة المستحدثة . »

خطبة فريد بك فى لندره ضد روزفلت وجراى : وعقب ذلك سافر محمد فريد بك إلى لندره لدحض هذه المطاعن التى أذاعها روزفلت وذلك التصريح الذى ألقاه السير جراى، وقرأت فى برقيات يوم ٩ يوليو أنه ألقى خطابا جامعاً فى لندره جاء فيه :

« يسرنى أن أتكلم هنا لأنى أشعر بأنى حر فى الكلام أكثر منى فى بلادى التى تحكمها عصابة من المستعمرين الانجليز الذين يضرون انجلترا وهم يظنون أنهم يخدمونها.

« إننا لا يمكننا أن نقر الاحتلال الانجليزى ، بل إنا لنعتبره ظلماً لا يستند إلا إلى القوة التى لا تخول حقاً . إن أمتكم تستطيع — مدفوعة بيد الاستعماريين الماليين —

أن تعلن حمايتها على مصر ، وأن تضمها إلى أملاكها ، ولكن لايمكنها أن تجعل مركزها فى مصر شرعياً . والحماية والضم ذاته لا يسقطان حقوقنا .

« لقد اتخذالاستعماريون فعلة الوردانى متكأً لهم فى إنفاذ حكم الارهاب بمصر فأصدروا قوانين منها :

أولا : محاكمة الصحف أمام محاكم الجنايات التى لا تستأنف أحكامها .

ثانياً : فصل الطلبة الذين يشتركون فى المظاهرات السياسية داخل المدارس أو خارجها .

ثالثاً : معاقبة كل من يتفقون على ارتكاب جريمة وإن لم يرتكبوها .

« وقد قوبل ذلك بالسكون واكتفت الأمة بالاحتجاج فى الصحف ضد قوانين لا تسن إلا إبان الثورات .

« وهكذا يريد الاستعماريون أن يمثلونا بالفوضويين ليبرروا وجود الاحتلال وحرماننا مما بقى لنا من حرية قليلة . ولا يصح الحكم على أمة بأنها فوضوية لأن شخصاً متحمساً من أبنائها ارتكب جريمة سياسية . فالجرائم التى من هذا القبيل ترتكب كل يوم فى أوربا وأمريكا دون أن تضطرب الانسانية ؛ فالرئيس « ماكنلى » فى أمريكا و « كارنو » فى فرنسا والملك « همبرتو » فى إيطاليا . . . الخ قتلهم الفوضويون فلم يخطر لدولة احتلال بلاد القاتلين ! . »

ثم تحدث عن بطلان الاحتلال وبطلان اتفاقية السودان وغيرهما وذكر الانجليز بوعدهم بالجلاء فى لهجة قوية قاسية .

تعيينى مديرا لديوان الأوقاف العمومية وبعض أعمالى فيه . قدم مصطفى ماهر باشا مدير الأوقاف تقريراً عن حالة الديوان المالية قال فيه إن الديوان مشرف على الافلاس بسبب كثرة المطلوبات منه . وكان المعروف عن هذا الديوان أن أعماله سر من الأسرار التى لا يطلع عليها أحد ، حتى نوهت بعض الصحف بهذه الحالة وأشارت بوجوب تعيين انجليزى يشرف على أعماله . وقد دارت المحادثات بينى وبين النظار بناء على الأمر لتعيين مدير جديد لديوان الأوقاف يستطيع إصلاح هذه الحالة فقر رأيهم على تعيينى رغم تمسك الخديو بابقائى فى المعية ، ولكن الضرورة حملته على قبول ما كان يأباه من قبل .

وفى ٢٦ مارس وجه سمو الخديو الىّ أمر التعيين الآتى :

سعادتلو أحمد شفيق بك

لما كان من رغباتنا العناية بأوقاف المسلمين والاهتمام بإقامة شعائر دينهم بمراعاة دوام تحسين حال ديوان عموم الأوقاف والصعود به فى مدارج الإصلاح فوراً ولوثوقنا باستقامتكم وأهليتكم للقيام بتنفيذ مقاصدنا نحو هذه المصلحة الخيرية اقتضت إرادتنا تعيينكم مديراً للديوان المشار إليه بمرتب ألف وستمائة جنيه سنوياً اعتباراً من تاريخ أمرنا هذا وأصدرناه لسعادتكم للعلم به والقيام بأعبائه ونعهدكم ببذل المجهود بما هو معهود فيكم من الصدق والجد والله تعالى ولى التوفيق هذا ونظراً لرضائنا عنكم قد منحناكم المحافظة على عنوان رئيس تشريفاتنا الخديوية عنوان شرف بكاليس ٢٦ مارس ١٩١١

وقد قابلت سموه بعد صدور الأمر فشكرته على جميل ثقته ، وذكرت أننى سأعمل على تحقيق هذه الثقة الغالية وسأكون مخلصاً لسموه خارج المعية كما كنت فى داخلها .

ثم ودعت زملائى بالمعية ، وقد هنأونى بالمنصب الجديد . وترتب على نقلى أن عين أحمد زكى باشا السرتشريفاتى خلفاً لى ، وسعيد ذوالفقار باشا سرتشريفاتى بدلا منه .

وفى الساعة الحادية عشرة بارحت الديوان لزيارة النظار بصفتى الجديدة وكان معى رئيس الديوان والسرتشريفاتى الجديدان للغاية نفسها .

برنامجى : ثم ذهبت إلى ديوان الأوقاف وجمعت رؤساء الأقسام والأقلام ووكلاءهم وألقيت عليهم الكلمة الآتية :

« عرفتمونى وعرفتكم من بضع سنوات أى منذ اشتغالى فى المجلس الأعلى ؛ ولهذا لست أشعر بأنى حديث بينكم وأظنكم تشعرون بأنكم لستم غرباء منى . ومتى كان هذا حالنا فلا ريب فى أن الثقة متبادلة بيننا وكل ما أطلبه الآن هو المساعدة من جانبكم على توثيق عرى هذه الثقة لكى يسهل علىّ وعليكم العمل فى طريق المصلحة العامة .

« وإنى أحب أن أعلنكم وكافة الناس المرتبطين بهذا الديوان بالمصالح المتعددة بأنى سأسير فى هذه المصلحة الخيرية من الطريق الذى سرت فيه بالديوان الخديوى فأفتح بابى لكل قاصد من أرباب الأشغال : غنياً كان أو فقيراً ؛ ولكل فرد من أفراد الموظفين : كبيراً كان أو صغيراً ، لأقف بنفسى على مطالبهم أو شكاويهم فأبذل جهدى فى إعطاء كل ذى حق حقه ومنع أى مظلمة تقع على أحد منهم ومنكم ولا بد لى لذلك أن أطلب من الرؤساء ومرؤوسيهم ألا يضنوا علىّ بأى فكر يبدو لهم لاصلاح شأن

هذا الديوان . وإنى أؤكد لكم أننى لا أنسى صاحب الفكر الصائب والنية الحسنة من المكافأة والتعضيد . وإننى مع اعترافى بتقدم ديوان الأوقاف فى السنين الأخيرة أصرح بأنه لا يزال فى احتياج عظيم للاصلاح ؛ وكل عمل فى الوجود قابل للاصلاح والنمو حسب الطبيعة فعلينا بصفتنا حراساً على هذه المصلحة ، مسئولين عنها أمام الله وأمام الناس ، أن ننهض بها إلى الرقى المطلوب حسب رغبة الجناب العالى حفظه الله كما نوه بذلك فى أمره العالى .

« المساجد محتاجة على الدوام لتعميرات ونظافة وعناية ، والمعاهد الدينية لالتفات خاص ورعاية ، والوعظ إلى انتشار على سنة نافعة مفيدة ، والأحياء الجديدة إلى محال لاقامة شعائر الدين بها ، والزراعات إلى ترقية ونمو مع استبدال القطع الصغيرة منها ، والخرابات التى فى صقع جيد إلى تجديد واستبدال ما كان منها فى صقع غير جيد ، والأحكار إلى طريقة موصلة لاستبدالها فى زمن قصير .

« ولا تخفى عليكم علاقة الديوان مع المحكمة الشرعية الغراء فيلزم على الدوام أن يكون حسن التفاهم سائداً بيننا وبينها لكى تساعدنا على الاصلاحات الجمة المطلوبة منا خصوصاً فى عهد سماحة قاضيها الحالى المذلل للمصاعب بفكره الصائب .

« وأمام هذه الأعمال الكبيرة الكثيرة التى وصفتها إجمالا لكم وتفاصيلها ووقائعها لا تخفى عليكم لا يتيسر النجاح فى القيام بها والفوز لاتمامها إلا ببذل الهمة والاخلاص فى العمل والمثابرة على تأدية الواجب وما هو فوق الواجب بنية صالحة لا يشوبها تكلف أو تظاهر أو اشتغال بالصغائر وما يجرى مجراها من الأمور الشخصية أو المنافسات الفردية ؛ فلنكن كلنا يداً واحدة وقلباً واحداً متوجهين إلى فكرة واحدة وهى القيام بالواجب الذى وجدنا من أجله فى هذا المكان .

« لا محسوبية ولا محاباة ولا تساهل فى الواجب هنا . من قام بواجبه وأخلص النية فله منى التعضيد والرعاية ، ومن قصر فلا ينتظر منى إغضاء عن تقصيره أو تراخياً فى إنذاره أو معاقبته . فلا لين فى حق ولا تراخى فى باطل .

« هذه كلمتى لكم أقولها بكل إخلاص من قلبى وأرجو أن تصل إلى مكان الاخلاص من قلوبكم والله أسأله أن تكون هذه الادارة مثال الكمال فى كل حال . »

فوضى الديوان وإنشاء قلم استعلامات : كان أول ما لاحظت فى الديوان أن الفقراء الذين يقصدونه لالتماس المساعدة أو لأخذ استحقاقهم وكذلك أصحاب الأعمال

العامة الذين يريدون قضاء أعمالهم لا يصلون إلى غايتهم إلا بعد مشقة أو تسلم أمورهم للخدم والفراشين وهؤلاء لا يستطيعون التصرف بشكل مقبول. ولهذا رأيت أن أحسن حل لهذا الموضوع هو إنشاء قلم فى فناء الديوان باسم قلم الاستعلامات ليكون واسطة بين الادارة وأصحاب الأعمال فيستقبل العرائض والمطالب ويوجهها إلى أقسامها ليأخذ عنها الجواب فيبلغه لأربابها. وقد عاد هـــذا القلم بالراحة على أصحاب المصالح ومع احتكاكهم بالموظفين مباشرة لما كان معروفاً من أن بعضهم كان يرتشى، وذكرت جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٦ أبريل إطراء لهذه الفكرة.

نظافة المساجد: وفى أول أبريل أديت فريضة الجمعة بالمسجد الحسينى وتفقدت حالة المسجد وملحقاته ومرافقه، وكان معى بعض كبار الموظفين فى الديوان فلفت نظرهم إلى العناية بالمساجد ونظافتها، وخصوصاً دورات المياه منعاً للأمراض ومحافظة على حرمة المساجد وجلالها.

ولبثت أؤدى صلاة الجمع فى مساجد مختلفة دون علم القائمين بأمرها لنفس هذه الغاية حتى يشعر المباشرون لها أن هناك رقابة على أعمالهم، فكان لذلك أثره الحسن.

تعيين مفتش للمعاهد من غير العلماء: ثم فكرت فى إدخال بعض العناصر الجديدة فى الأزهر بقصد إصلاحه، فتقرر تعيين عبد الغنى شاكر بك مفتشاً لادارة المعاهد الدينية وسكرتيراً لمجلس الأزهر الأعلى، ولكن هذا التعيين أثار ثائرة العلماء باعتبار أن منصب مفتش إدارة المعاهد من حقهم وأن عبد الغنى بك غريب عن الأزهر، فرفعوا عرائض بالاحتجاج لشيخ الأزهر، وكذلك جاءنى الشيخ على سرور الزنكلونى والشيخ محمد الشنوانى وشكوا إلىّ من هذا القرار والتمسا النظر فيه.

وقد رأيت موافقتهما والسير فى الاصلاح الذى أقدره بخطوات وئيدة فوعدتهما بأن يكون عبد الغنى بك سكرتيراً فقط للمجلس الأعلى وتركت التفتيش لادارة الأزهر وأرسلت التعليمات الخاصة بذلك إلى المشيخة.

توسيع اختصاص الموظفين: ولاحظت بعد ذلك أن حصر السلطة فى يد واحدة وحرمان الموظفين إلا من سلطة محدودة يقلل من تفكيرهم وتصرفهم، ويجعلهم آلات تتحرك دون أن تفكر، وقدرت أن توزيع السلطة يزيد عدد العقول المفكرة فى الأعمال، ويعطيها الفرصة الكافية لتنتج وفى الوقت نفسه يخفف العبء الثقيل الملقى على عاتق الرئيس.

جمعت فى منزلى كبار الموظفين والمأمورين للتفاهم معهم فى توسيع اختصاصهم وألقيت عليهم الكلمة الآتية :

« قد جمعتكم اليوم للمداولة فى الأمور المختصة بوظائفكم لعلنا نهتدى من مبادلة الأفكار معكم إلى نتيجة تزيد فى تحسين الأحوال وتعلى من سمعة الديوان .

« ثم أوصيكم قبل كل شىء بصفتكم نائبين فى الجهات عن مدير الأوقاف أن تكون علاقتكم مع الادارة فى الأقاليم وفروع الحكومة خصوصاً المحكمة الشرعية ، لارتباط أعمالكم بأعمالها فى كثير من الأمور ؛ على أحسن حال وأهدى سبيل وأن تجتهدوا دائماً فى تحسين هذه العلاقات لتسهل الوسائط فى إنجاز أعمال الأوقاف .

«وأود منكم بصفتكم ممثلين لديوان الأوقاف أيضاً، وهو المصلحة الخيرية المتشعبة العلاقات مع طبقات الناس، أن تكون معاملتكم للأفراد قائمة على الطريقة المثلى والخطة الحسنى وألا تشوب سيرتكم الخصوصية شائبة تضع من أقداركم فى النفوس وتزرى بكم فى العيون . نعم ربما يقال إن السيرة الشخصية تتعلق بشخص الانسان ولا دخل لها فى وظيفته ما دام مؤدياً لها أحسن الأداء ؛ لكننى أرى أن الموظف إذا جمع إلى حسن الادارة حسن السيرة ، كان ذلك أليق به وأكمل له ، واحترام الموظف لنفسه يكسبه احترام الناس ، خصوصاً من كان حوله من العمال فتتربى له فى النفوس سلطة أدبية هى فى الواقع أرفع وأنفع من السلطة المادية ، وتلك هى زينة الوظيفة وجمالها .

« ثم إننى أود أن يكون المأمور منكم عالماً بكل ما تحت إدارته محيطاً بأطراف عمله ، فاذا سئل عن أى شىء من هذا القبيل كان جوابه عن علم ومعرفة وألا يكتفى بالنظر فيما أمامه من الأعمال الكتابية فوق مكتبه وإنجازها فقط ، بل يجب عليه أن يتنقل فى أنحاء مأموريته ويطلع بنفسه على جميع الأماكن والمحال المتصلة بادارته .

« والآن أطلب منكم أن تبدوا لى ما يعن لكم من الملحوظات فى مشروع الأمر الادارى المتعلق بتوسيع اختصاصاتكم . »

وبعد أن استمرت الجلسة أكثر من خمس ساعات صدر الأمر الادارى مفتتحاً بالمقدمة الآتية :

« قد رأينا أن نوسع لكم فى اختصاصاتكم ما لم يكن لكم من قبل وقصدنا بذلك أن يكون فى أيديكم من سعة الاختصاص ما يؤهلكم إلى الاحسان فى العمل ويوصلكم إلى

الارتقاء فى الأعمال والوظائف ولتدركوا عظم المسئولية التى توازى سعة الاختصاص وقصدنا من جهة أخرى توفر الوقت فى العمل للتمكن من إنجاز الأشغال فى أوقاتها وانتظام السير فيها على وجه السرعة. وقد بدأنا باعطائكم بعض الاختصاصات على سبيل الاختبار لنبنى حكمنا فى المستقبل على سيركم فيها.»

كان لهذه الخطة أثر حسن جداً وعلقت عليها الصحف باستحسان وألحت على اتباعها فى جميع دواوين الحكومة.

تعديل المجلس الأعلى للأوقاف: فى ٢٧ يوليو صدر لى أمر خديوى بتعديل هيئة المجلس الأعلى فى ديوان الأوقاف. وخلاصته أن هذا المجلس يؤلف من مدير عموم الأوقاف رئيساً ومن رئيس الديوان العربى الخديوى ومفتى الديار المصرية ومحافظ مصر والعضو المندوب عن القاهرة فى مجلس شورى القوانين وموسى غالب باشا المهندس والدكتور محمد شكرى باشا. وحسين واصف بك المهندس بالأشغال أعضاء. وينوب رئيس الديوان العربى عن الرئيس عند غيابه.


حسين واصف بك المهندس

رحلة لزيارة مأموريات الأوقاف:

وفى ١٥ أغسطس سافرت إلى الوجه البحرى لزيارة مأموريات الأوقاف وتفقد أحوالها والوقوف على ما يعوزها من وسائل الاصلاح والتحسين. وكان يرافقنى محمد سليمان أباظة بك مدير قسم الزراعة بالأوقاف ومحمد افندى وجيه السكرتير الخاص. وقد بدأنا بزيارة مديرية البحيرة فمررنا على أملاك الأوقاف بدمنهور وعاينا ما تحتاجه من التعمير ثم قصدنا زراعتى الابراهيمية وجنبواى وغيرهما فوجدناها جميعاً فى حاجة للاصلاح وقد تقرر فتح اعتماد قدره ثلاثون ألف جنيه لذلك.

وفى ٢٠ منه زرنا زراعة مشتهر فى القليوبية، ثم سافرنا إلى الزقازيق فتفقدنا زراعة كفر الحمام ومأمورية الأوقاف بها وكانت فى حالة مرضية.

وفى ٢٣ منه كنا فى قلين وشباس، ثم زرنا مأمورية المحلة فى اليوم التالى وتفقدنا وقف أبى العباس والمساجد فى البندر ومدرسة الجمعية الخيرية بها .

وذهبنا للمنصورة يوم ٢٧ منه فعاينا الأملاك بها وشاهدنا زراعات طلخا ثم شربين وسررت من حالتها .

وانتهت الرحلة يوم ٢٩ منه فعدت إلى الاسكندرية .

رحلة إلى مرسى مطروح : وفى أول سبتمبر ركبت الباخرة عبد المنعم ومعى محمد على دلاور بك مدير الادارة ويوسف بك لطفى مأمور الأوقاف فى الاسكندرية والشيخ محمد بخيت قاضى الثغر الشرعى وغيرهم من موظفى المصلحة قاصدين مرسى مطروح لافتتاح مسجد جديد قررت الأوقاف تشييده من قبل وأنفقت عليه نحو ألف وخمسمائة جنيه.

وقد وصلنا فى اليوم التالى فاستقبلنا نائب قومندان خفر السواحل بصفة عسكرية ثم ركبنا الهجن إلى أن وصلنا إلى مسجد « سيدى العوام » حيث استقبلنا مأمور المركز وموظفوه فى سرادق أعد لذلك وكذلك أعيان الجهة والتجار ومشايخ العربان . وبعد أن أقام العربان حفلة « برجاس » ألقيت خطبة أعلنت فيها افتتاح المسجد باسم الخديو

٢



١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦

افتتاح مسجد مرسى مطروح

(١) ابراهيم أدهم بك (٢) يوسف لطفى بك (٣) محمد على دلاور بك (٤) أحمد شفيق باشا
(٥) الشيخ محمد بخيت (٦) الشيخ محمد البورينى

فهتف الجميع بالدعاء لسموه وتناولنا المرطبات فى السرادق ثم أدينا فريضة الجمعة بالمسجد وخطب الشيخ بخيت وعدنا للباخرة .

وفى الساعة السادسة مساء قمنا من مرسى مطروح فوصلنا الاسكندرية صباح ٣ سبتمبر ثم عدت إلى القاهرة فى ١٠ منه .

الاحتفال بذكرى محمد على الكبير : جرت عادة ديوان الأوقاف أن يحتفل فى يومى ١٣ و ١٤ من رمضان كل عام فى مسجد القلعة بذكرى وفاة محمد على الكبير وذلك بقراءة القرآن وتوزيع الصدقات . وقد رأيت أن الاكتفاء بذلك لايمثل ذكرى المحتفل به حق التمثيل وأن اللازم ذكر شىء من تاريخه فى هذه المناسبة ، فكتبت فعلا خطبة بها شىء عن إصلاحات محمد علىّ ، على أن يلقيها الشيخ محمد راشد إمام الحضرة الخديوية فى المسجد . ولما كان الخديو فى أوربا فقد أناب عنه دولة شقيقه البرنس محمد على وحضر النظار وكبار الموظفين كالمعتاد وبعد قراءة القرآن وقفت وألقيت الكلمة التالية :

« ورد فى الحديث المأثور : « اذكروا محاسن موتاكم . » وفى ذكر هذه المحاسن من تمجيد أعمال السلف وتخليد آثارهم ما يجرى مجرى حسن الجزاء على ما أتوه من جليل الأفعال وما اتصفوا به من حميد الصفات فهو حق لهم فى ذمة الخلف يجب علينا القيام به وحسن أدائه لهم . ولما كانت هذه الليلة ليلة الاحتفال بذكرى وفاة ذلك البطل العظيم رأس هذه العائلة المالكة فقد رأينا من الواجب المحتم أن نذكر شيئاً من آثاره على طريق الاجمال والاختصار بوجه عام ، فوضعنا فى ذلك نبذة جعلناها كالفهرست لتلك الأعمال الجليلة نضيف اليها فى كل عام إن شاء الله تفصيل ما أجملناه وتوضيح ما لخصناه . وإنى أستأذن دولة البرنس النائب عن الحضرة الفخيمة الخديوية بسماعها والله يتقبل منا صالح الدعوات لصاحب هذا الضريح فى هذه الليلة المباركة إنه بالاجابة جدير . »

ثم وقف الشيخ راشد فألقى الكلمة التى سبق أن كتبتها لتلقى فى هذه الليلة .

حالة التكايا والمساجد : لما كانت التكايا داخلة فى اختصاص الأوقاف وقد سمعت عنها أموراً غير مشرفة مع أنها لم توجد إلا لمساعدة المحتاجين ، كلفت مأمور قسم ثالث أوقاف أن يبحث هذه المسألة ويكتب لى عنها تقريراً وعن حالة المساجد التى تقع فى دائرة اختصاصه . وقد بعث إلىّ بالتقرير الأول فى ٦ سبتمبر وبالتقرير الثانى فى ٢٠ منه ، فثبت لى أن حالة التكايا أسوأ مما بلغنى عنها ، وأنها أصبحت ملجأ لغير

المحتاجين ، على حين أن المستحقين فيها لا ينالون أرزاقهم ؛ وأصبح بعضها مباءات للفساد بسبب إهمالها وعدم تنظيم شئونها .

وقد قررت بعد ذلك أن يكون في كل تكية سجلات خاصة بأسماء الفقراء يوقعون فيها على ما يتسلمونه من الصدقات منعاً للتلاعب ، مع تغيير بعض مشايخ التكايا المفسدين .

أما حالة المساجد فقد علمت من التقرير أن بعضها فتحت أمامه وبجواره مقاهٍ تزدحم بروادها وتعطل شعائر الصلاة بضوضائهم ، فكتبت إلى نظارة الداخلية لحظر هذا الأمر وإغلاق هذه المقاهي وعدم التصريح بفتحها بجوار المساجد .

التوظيف والترقي في الديوان : إن التكلم على التوظيف في ديوان الأوقاف لمن النقط الأساسية التي عليها قوام العمل، خصوصاً وقد ذهب الناس مذاهب شتى في أمره وأطلقوا فيه من الظنون ما لا يصادف الواقع؛ فهم يتوهمون أن مجرد كون الديوان مصلحة خيرات وإحسان كاف لأن يقبل كل ملتجيء إليه طالب للخدمة دون أن يكون للكفاءة والنظام ورعاية وجوه الميزانية موضع من الاعتبار .

توهموا هذا وتوهموا أن الديوان لا يرد رجاء راج ما دام متوسلا بشفاعة أو محسوبية فتصوروه مملوءاً بالعاطلين الذين ضاقت في وجوههم سبل العيش وأعجزتهم وسائل الرزق وصدوا عن كل عمل . وفي هذا القول مبالغة شديدة وغلو ظاهر .

والحق أن الديوان قد درج في المدة الأخيرة في أمر التوظيف على خطة اختيار الأكفاء الذين تستقيم بهم حركة الأعمال ملتزماً حدود ميزانيته جارياً على حكم نصوص القانون المالي ولوائح الاستخدام التي تسير عليها الحكومة في ترتيب الدرجات وفي التعيين والترقي والعلاوة والمعاش .

انتقاء الموظفين : وقاعدتنا في انتقاء الموظفين إذا خلت وظيفة في الأوقاف أن ننظر في استعداد موظفيه وكفاءتهم وحسن سابقتهم في الخدمة فننتخب من بينهم أليقهم لها وأحقهم بها أو نعمد إلى الكفء الذي شهد له عمله في خدمة الحكومة فنعينه أو نعلن عنها في الصحف ليتقدم إليها أرباب الشهادات من متخرجي المدارس أو من مرفوتي الحكومة حتى إذا اجتمعت الطلبات عرضت على لجنة من رؤساء الأقسام لاختيار أكفأ الطالبين وأعظمهم أهلية للوظيفة التي يراد التعيين فيها .

حالة بعض الموظفين ؛ وقد أكون مبالغاً إذا لم أستدرك على ذلك القول بأنه يوجد بالطبع بجوار الأكفاء المستخدمين عدد قليل الأهمية واللياقة سواء كان بين كبار الموظفين أو بين صغارهم.

وقد تأكدت من ذلك بنفسى أثناء طوافى بمأموريات الأوقاف فى الوجهين البحرى والقبلى إذ سألت أحد المأمورين عن مقدار المبالغ المتأخر تحصيلها عنده فأجاب بأنها لا تتجاوز مائة وخمسين جنيهاً وهى فى ذمة رجل مضمون ولما طلبت من كاتب الحسابات كشفاً ببيان هذه المبالغ ظهر أنها تقدر بآلاف الجنيهات . فلما راجعت المأمور أجاب بأن ما زاد على المائة وخمسين جنيهاً إنما هو قيمة المبالغ المرفوع بها قضايا أمام المحاكم، وكأنه قد جرى فى خياله أن مجرد تقديم القضايا إلى المحكمة يخرج مبالغها عن وصف كونها مبالغ متأخرة فهى لا تستحق منه اهتماماً ولا ترتقى قيمتها عنده إلى مجرد ذكرها . ومن ذلك تتبين درجة تقدير هذا المأمور لعمله ومسئوليته . كذلك لاحظت أن أحد المأمورين لا يعرف مواقع المساجد من المدينة التى يقيم فيها منذ أكثر من سنة ؛ وهذا وحده يدل على قدر اهتمامه بها ومبلغ تعهده لها . وإنما ضربت هذين المثلين لأهمية الموظفين المشار إليهما ، وأما الحال فى صغار المستخدمين فلا يعدم الناقد أن يجد من بينهم من تجرد عن الكفاءة والأهلية ؛ وسنبذل الجهد إن شاء الله فيما تنتظم به الأمور وتستقيم به الأحوال .

تعيين تلامذة : وقد اتخذنا طريقة جديدة لاعداد الموظفين فى الدرجات الصغيرة وتمرينهم على العمل حتى يتدرجوا فى الوظائف محيطين بأعمالها فقررنا عشر وظائف تلامذة مرتب كل منها ثلاثة جنيهات ينتخب لها عشرة أشخاص من حاملى الشهادة الابتدائية بعد الاعلان عنها فى الصحف؛ وقد كان ذلك ، وهم الآن يتنقلون فى أقسام الديوان وفروعه للتمرن على أعماله قسما بعد قسم حتى إذا خلت وظيفة من الدرجة السابعة التى بدايتها خمسة جنيهات ونهايتها تسعة ، ألحق بها التلميذ سواء كان فى أقسام الديوان أو فى مأمورياته .

الظهورات : وهناك باب آخر من أبواب التوظيف ربما تناولته الشبهات وكان محلا للظن بأن التعيين فيه جار على حسب الأغراض والأهواء وهو باب الظهورات . وقد رأينا من المصلحة منذ تولينا إدارة الديوان أن نضيق حدوده ما أمكن وألا نجدد بعد الآن شيئاً من هذه الوظائف . ورأينا من جهة أخرى أن نتدرج إلى تثبيت هؤلاء

العمال الظهورات الموجودين الآن شيئاً فشيئاً حتى ينتهى الأمر على طول الزمان بسد هذا الباب الذى ربما كان موضعاً لعبث الأيدى فى الرفت والتعيين .

وقد رفعنا بذلك مذكرة إلى المجلس الأعلى نالت مصادقته وقررنا فيها وجوب تثبيت العامل الظهورات متى توفرت فيه شروط أربعة وهى: (١) أن يكون حائزاً لرضا رؤسائه شاهدين له بالكفاءة والاستعداد وحسن السلوك (٢) ألا يكون وقع عليه مدة خدمته من الجزاءات التأديبية ما يمس جوهر وظيفته (٣) أن يكون أمضى فى خدمة المصلحة ثلاث سنوات على الأقل (٤) ألا يكون به داء عضال .

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام ، للدلالة على ترقى حالة التوظيف فى ديوان الأوقاف ومراعاة المستخدمين فيه ، من حيث إنالتهم كل ما يستحقونه من الترقية والعلاوات بلا تقتير ولا تفريط وحسن معاملتهم فى تطبيق نصوص القانون فى أمر معاشاتهم، أن موظفى الحكومة كانوا قبل الآن يعتبرون خدمة الأوقاف أقل درجة فى الشأن من خدمة الحكومة فكانوا لا يقبلون عليها ؛ أما الآن فقد ظهرت شدة ميلهم لخدمتها رغبة فى التمتع بمزايا إدارتها .

هذه هى حال التوظيف فى ديوان الأوقاف بقيوده وشروطه الآن ؛ إلا أنه مع علم بعض الناس بها لا يزال لهم ولع بالسعى والرجاء وراء التوظف به . فاذا ذكرت لهم هذه القيود ، رددوا القول بأن المصلحة خيرية لا ينبغى فيها التدقيق فى بذل الخير للضعفاء والمعوزين بتعيينهم فى الوظائف التى ينالون بها وجوه العيش ويتوسلون بها إلى أبواب الرزق . ولكنه قول باطل ونظر ضعيف ، فان الخير كل الخير للناس وللواقفين ولمصلحة الأوقاف أن يكون الموظف المؤتمن على مال الوقف وإدارته من خير الناس وأكفأ العاملين ، وأضرب لك مثلا أن رئيس الحكومة محمد سعيد باشا أوصانى على شخص لتوظيفه فعرضت عليه الدخول فى الامتحان فأبى . ولما سألته عن مؤهلاته ، لم أر منه الكفاءة لأخذ الوظيفة التى كان يرغب فيها فرفضت طلب الباشا . وتصادف وجوده فى المنتزه عندما توجهت لأداء صلاة الجمعة مع الخديو ففاتحنى أمام سموه عما فعلته بخصوص الشخص المذكور فأجبته بأنه غير لائق لدخوله فى الوظيفة المطلوبة له فقال بالنظرية السابق التنويه عنها فرددت عليه بأنى لا أقبل أن يحسب علىّ موظف غير كفء للقيام بوظيفته فاذا كان الغرض مساعدته على معاشه فليكن من باب الإحسانات وما على الباشا إلا أن يلتمس من أفندينا تخصيص مرتب له فكان عباس من جانبى .

أما الترقية فقد انهالت منذ وطأت أقدامى هذه المصلحة رسائل التوصية بترقى بعض الموظفين فكنت أؤشر عليها للبحث فى ملفات خدمتهم فان وجدت من بينهم المستحق كتبت اسمه فى كشف المستحقين لترقيته فى الوقت المناسب والباقى أرفضه ولو كانت التواصى من رجال المعية أو من النظار . فان أحد النظار طلب ترقية لأخيه وآخر لابن مرضعته فرفضت لعدم استحقاقهما لأننى لو أجبت طلبهما لانتقد علىّ الموظفون ورمونى بالمحاباة .

وكان بعض أصدقائى يرتكنون على مودتى لهم فيطلبون ترقية بعض المنتمين إليهم ولكننى كنت أتبع نفس هذه الطريقة .

وفاة ملك الانجليز . فى يوم ٧ مايو وصلت البرقيات بوفاة ملك الانجليز إدوارد السابع ، وقد أرسل سمو الخديو عقب وصول هذا الخبر برقية من الاسكندرية إلى السير الدون جورست يعزيه فيها هو والحكومة الانجليزية وهذا نصها :

« علمت الآن الخبر الرهيب بوفاة جلالة الملك إدوارد السابع فجأة ، فأرجو أن تبلغ تعزيتى للحكومة الانجليزية وتعرب لها عن مشاركتى لها فى أحزانها . ولو كنت بالقاهرة لحضرت بنفسى إلى الوكالة البريطانية لأعرب لكم عن كل ما أشعر به فى هذا المصاب المحزن الأليم ، ولكن نظار حكومتى سيزورونكم ليعربوا لكم عن أسف حكومتى ومشاركتها للحكومة الانجليزية فى أحزان هذا اليوم الذى نشترك كلنا فيه . »


البرنس محمد على

البرنس محمد على يشيع الجنازة : وفى ٩ منه سافر سعيد ذو الفقار باشا التشريفاتى الأول واللواء واطسن باشا والصاغ محمود خيرى من الياوران إلى لندن ليلتقوا هناك بالبرنس محمد على للاشتراك فى تشييع جنازة الملك .

احتفال بالجنازة فى ثكنة قصر النيل : وفى ٢٠ منه احتفل فى ثكنة

قصر النيل بجناز للملك المتوفى ، وحضر هذا الاحتفال البرنس حسين كامل باشا وكثير من البرنسات والنظار ووكلاؤهم وأعضاء مجلس شورى القوانين ، وكنت ممن حضروا هذا الاحتفال بصفتى مديراً لديوان الأوقاف العمومية .

وفى الساعة الخامسة عزفت الموسيقى بألحان محزنة وأقبل الموكب يتقدمه رئيس كهنة البروتستانت ويحف به رجال الدين حتى وصل إلى منصة فى وسط ساحة الثكنة فاعتلاها الرئيس وتليت الصلوات المعتادة ، ثم أطلقت المدافع ونشر العلم البريطانى فحياه الجنود الانجليز هاتفين للملك الجديد « جورج الخامس » . وبذلك انتهت الحفلة ، وخرجنا بعد أن قدمنا للسير جورست عبارات التعزية ثم التهنئة بالملك الجديد .

سفرى للاسكندرية لقضاء فصل الصيف بالنظار . وفى ١٤ يونيو سافرت إلى الاسكندرية لقضاء فصل الصيف وأخذت محلا خصيصاً لأعمال الديوان فى سان استفانو .

اختيارى لرياسة لجنة امتحان مدرسة المعلمين الناصرية . كان أحمد حشمت باشا ناظر المعارف طلب منى قبول رياسة امتحان مدرسة المعلمين الناصرية فى أواخر شهر مايو الماضى، فقبلت هذه المهمة . وبعد انتهاء الامتحان والتصحيح والمراجعة رفعت لناظر المعارف تقريراً فى ١١ يوليو عن حالة المدرسة ، وهذا نصه :

« بناء على إفادة نظارة المعارف العمومية المتضمنة لانتخابى رئيساً للجنة الامتحان بمدرسة المعلمين الناصرية :

« أتشرف بأن أرفع إلى سعادتكم تقريرى هذا بعد اطلاعى على جميع التقارير المقدمة من حضرات الممتحنين . وأنتهز هذه الفرصة فأؤكد لسعادتكم بأن نظام الامتحان كان بالغاً جداً يوجب الاعجاب والاستحسان بهمة سعادة ناظر المدرسة وحضرات الممتحنين والمراقبين .

« قد تبين لى من جملة تلك التقارير أن هذه المدرسة تسير سيراً جميلا فى طريق التقدم والفلاح . وأن النتيجة فى هذا العام كانت أحسن منها فى العام الماضى جرياً على سنة الترقى . وقد وجدت فيها من الملاحظات والآراء ما يليق أن يوضع موضع النظر والعناية طلباً للكمال والاتقان .

«والذى تتجه إليه الأفكار وتجتمع حوله الآراء هو وجوب صرف الهمة فى هذه المدرسة إلى العناية بتقدم فن الانشاء لأنه مقصد المقاصد من التعلم فيها ما دامت الغاية منها تخريج الطلبة إلى وظيفة المعلمين للغة العربية .

« ولا وصول إلى هذا الغرض إلا بكثرة الدرس لتربية ملكة الانشاء . وهذه الملكة لا تنمو وتغزر مادتها بمجرد حفظ قطع معينة من النظم والنثر ، فان الاقتصار على طريقة الحفظ وحده تنتهى بالطالب الى أنه يعتمد كل الاعتماد على الاتيان بما حفظه دون أدنى تصرف . ومن المحقق أن سلوك هذه السبيل مما يعطل تربية الملكات التى لا تتأتى إلا من طريق تصرف الذهن وتشعب الفكر . ولا يتيسر تكوينها إلا بكثرة المطالعة فى الكتب المشتملة على جيد القول وحر الكلام فينتقل الطالب فيها ما شاء من باب الى باب ومن مطلب الى مطلب من غير كدّ ولا استكراه وبدون أدنى سأم أو ضجر فيتولد عنده حينئذ من الارتياح والاشتياق ما يجعل ذهنه منبسطاً لالتقاط محاسن التعبير وبدائع التركيب بما تنمو عليه الملكات الصالحة . هذا فضلا عن اتساع محصوله من العلوم والفنون التى يتقلب فى أبوابها أثناء المطالعة فى مثل تلك الكتب المطولة فيتكون لديه منها ومن جملة ما يحفظه من قطع النظم والنثر مادة غزيرة يتصرف بها فى وجوه الكلام والانشاء .

« فأرى لأجل ذلك مطالعة كتابين أو ثلاثة من هذا القبيل مثل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب الكامل لأبى العباس المبرد وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وما يماثلها من كتب الأدب واللغة والتاريخ .

« وأرى فوق ذلك من وجوه التحسين ، أن يعين درس محاضرة فى آداب اللغة مرة فى كل أسبوع حتى يتمرن الطلبة بكثرة المناقشة والمباحثة على قوة التصرف وصحة الرأى فيتكون لهم بذلك حكم يقدرون به على تصريف عقولهم دون الاتكال على أحكام الغير ، ويكون لفكرهم تحكيم فى الموازنات ولعقولهم تصرف فى المفاضلات .

« ثم لابد أن يسار بالطلبة فى طريق التفسير للقرآن الكريم ، سبيل التوسع فى التطبيق لأحكامه الشريفة على حاجات الهيئة الاجتماعية نظامية واقتصادية ؛ فلا يقفون به عند حد التفسير اللفظى . ولقد عز علىّ ما رأيته من أحد الطلبة من التقصير فى تطبيقه للآيات الكريمة التى تعتبر أساساً لعلم الاقتصاد وهى قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين

وكان الشيطان لربه كفوراً » الى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . »

«فان الطالب لم يحسن تطبيق معانيها الشريفة على أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية التى نحن فى حاجة الى معالجة أدوائها بقوة الأحكام الالهية المؤثرة فى النفوس تأثيراً لا يتسنى لغيرها من الأحكام الوضعية .

« وإن ألزم ما يكون لطلبة هذه المدرسة الذين يتخرجون منها لممارسة صناعة التعليم والتربية ، تضلعهم من علم الأخلاق فانه الأساس لاصلاح النفوس وتهذيب الطباع . وليس ينفع التبريز فى العلوم والفنون ما دامت النفس خالية من فضائل الأخلاق ومحاسن الصفات ؛ بل ربما كان النفع منها موهوماً والضرر محققاً . ولذلك أرى أن يزاد نصيب هذا العلم الواسع فى أوقات الدراسة فان مدته فى البروجرام الحاضر لا تزيد عن ساعتين فى الأسبوع كله فى السنة التحضيرية فقط .

« وأرى أيضاً أن تفتح نظارة المعارف باب الترغيب لمن تعلو درجتهم من الطلبة فى علوم اللغة العربية أدبياً ومادياً . أما الأدبى فهو أن تأمر النظارة بطبع ما تراه جيداً فى باب الانشاء وغيره مما يجىء فى أوراق الامتحان ثم تجعله مجموعة تنشر بأسماء الطلبة المجيدين مع التنبيه على ما يكون فيها من التقصير ثم توزع على سائر الطلبة . وأما المادى فهو أن تقرر النظارة مكافأة أو نوعاً من الترقية لمن يستمر على الاشتغال بما يجيد فيه بعد تخريجه من المدرسة مدة سنتين ويحوز السبق فى الاختبار الذى يخصص لذلك فينشط المتخرجون إلى بلوغ درجة الاتقان فى العلم الذى يصرفون هممهم نحوه كما ألمعنا إلى ذلك فى خطابنا الذى ألقيناه عليهم وكما يشير إليه حضرة الممتحن فى الخط حيث ذكر فى تقريره أنه يوجد أربعة من بين الطلبة حازوا الدرجة النهائية فى هذا الفن وأنه يجب على نظارة المعارف أن تستخدمهم فى مدارس القاهرة للانتفاع بهم وللمحافظة على تقدم الفن حتى يتمكنوا من إتقانه على أساتذته فيصلوا إلى درجة النبوغ فيه .

«وجملة القول أن حال هذه المدرسة يتدرج من حسن إلى أحسن ، خصوصاً إذا نالت من عناية النظارة بها ما تستحقه ؛ وعدلت بعض التعديل فى أوقات الدروس ، بتخفيض بعضها فيما هو ليس بضرورى جداً لطلبتها كالتضلع فى مثل الجغرافيا الطبيعية والعمل الكيماوى ؛ وازدياد بعضها فى العلوم الجوهرية لهم لمزاولة صناعة التعليم المخصصين له مثل علوم اللغة والتفسير وعلوم التربية والأخلاق ، وفى كثرة المطالعة والمحاضرة حتى

لا تكون نسبة الناجحين أقل منها فى الرياضيات مثلا .

« وإنى لأجد نفسى مقصراً عن الواجب إذا أنا ختمت تقريرى هذا ولم أكتب حرفاً عن المنافع والفوائد التى لا تزال هذه المدرسة مصدراً لها فى السابق واللاحق . فكم أنجبت من الطلبة فى مدة خمس وثلاثين سنة منذ إنشائها إلى اليوم وكم انتفعت الأمة بعلومهم ومعارفهم . وكم استفادت الحكومة من استعدادهم للقيام بمهام وظائفها . فهى جديرة بأن تكون فى المقام الأول بالنسبة لحسن سابقتها ولشدة الحاجة إليها اليوم ولضرورة الاستفادة منها فى المستقبل .

« وفى الواقع فان الحاجة شديدة إليها داعية إلى صرف العناية نحو تقدمها وتوسيعها إذا نحن ألقينا نظرة إلى النمو المتواتر كل عام فى عدد طلبة المدارس ، أميرية كانت أو حرة . ويكفينا الاطلاع على جداول الامتحان فى هذا العام ليقوم لنا البرهان الواضح على أن الأمة فى حاجة مستمرة الى زيادة عدد المعلمين . ولا يقال إن المدارس المعينة لتخريج المعلمين مما تسد الحاجة أو تقوم بالمطلوب . فاننا إذا نظرنا الى عدد الداخلين فى هذا العام فى امتحان الشهادة الابتدائية وقدرهم ١٨٩٥ من المدارس الأميرية و ٢٥٩٦ من المدارس الحرة و١١٣٣ من المتعلمين فى منازلهم مع ازدياد هذا العدد عاماً فعاماً ، وجدنا عدد المعلمين ينقص نقصاً ظاهراً بالنسبة لهذا العدد العظيم . نعم ربما قامت مدارس المعلمين بالحاجة لمدارس الحكومة الأميرية . ولكن من لنا بوجود العدد اللازم من المعلمين لتعليم طلبة المدارس الحرة ومدارس الجمعيات الخيرية وتعليم الطلبة فى منازلهم ، وعددهم عظيم كما بيناه والزيادة فيه متوالية كما نراه .

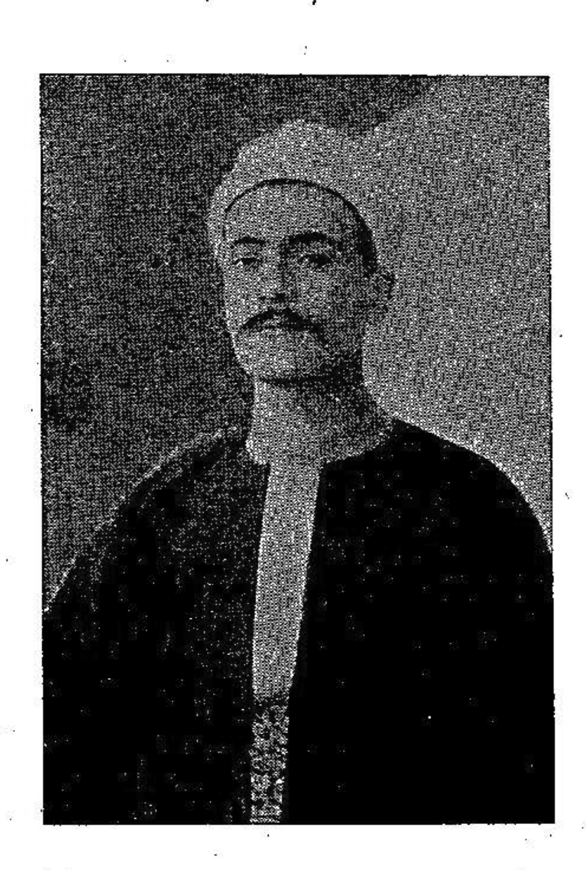
وهناك أمر آخر وهو أننا إذا نظرنا نظرة أيضاً الى أن عناية نظارة المعارف أصبحت متجهة نحو تعميم التعليم فى مختلف العلوم باللغه العربية ، ظهرت زيادة الحاجة الى كثرة عدد المعلمين من هذه المدرسة ووجب صرف العناية الى ترقيتها وتقدمها كل الوجوب لتكفلها بهذا الغرض أكثر من سواها ؛ لا أننا نراها فى ضعف النمو سنة عن سنة . فقد ألغى منها فصل فى هذا العام من السنة التحضيرية فاستبدل الفصلان بفصل واحد . فاذا استمر الحال على هذا المنوال فى كل عام فلا تمضى خمس سنوات حتى تنخفض فصولها الى خمسة فتنحدر هذه المدرسة العظيمة الفائدة فى طريق النقص بدل أن تعلو فى طريق النمو .

« وإنما دفعنى الى الاسهاب فى هذا الموضوع ما لا أزال أراه وأسمعه من كل

طرف عن شدة الحاجة والعوز الى وجود العدد العظيم من المعلمين بين الأمة المصرية وأن هذا هو الأمر الأولى المقدم على سواه من وجوه انتشار التعليم فيها . ولو فرضنا أن العناية بهذه المدرسة جاءت بزيادة عدد المعلمين اللازمين فان المتخرجين منها يأتى منهم النفع العام على كل حال للأمة بأسرها ، فضلا عن أن الحكومة ليست مكلفة باستخدام ما يزيد عن حاجتها ولهم فى انتفاع الأمة بهم مكان معلوم .

« وأنا لا أشك فى أن هذه المدرسة ، التى كانت ولا تزال مفخرة المفاخر للمرحوم على مبارك باشا ولمن بعده من رجال الحكومة الذين أنالوها حقها من العناية ، ستكون إن شاء الله بعناية ناظر المعارف الحالى ورئيس الوزراء — وهمتهما فى رقى المعارف مشهورة مذكورة — سائرة فى طريق التوسع والتقدم على نظام يزيد فى علوّ مكانتها ويضاعف من حسن سمعتها ويكفل دوام الاستفادة منها وانتفاع الأمة المصرية بها ، فتتكفل لوزراء مصر بدوام الفخر وتشهد لهم على الدهر بحسن الذكر . »

وقد ورد لى من ناظر المعارف رسالة الشكر التالية المؤرخة ٢٢ أغسطس وهذا نصها بعد الديباجة : « وصل إلينا التقرير الذى تفضلتم سعادتكم بارساله إلينا عن نتيجة الامتحان النهائى لطلاب مدرسة المعلمين الناصرية الذى جرى هذا العام تحت رئاستكم وإنا لنسدى سعادتكم واجب الشكر الجزيل على هذه الخدمة العلمية الجليلة ونرجو ألا تحرم نظارة المعارف فى جميع الفرص من عظيم مساعداتكم أفندم . »



الشيخ على الغاياتي

قضية ديوان « وطنيتى » .

وفى ١٢ يوليو علمت أن النيابة تحقق فى قضية سياسية خلاصتها أن الشيخ على الغاياتى المحرر بجريدة العلم المنتمى للحزب الوطنى طبع ديوان شعر بعنوان « وطنيتى » فيه

حط من شأن الحكومة وتحريض على العبث بالنظام فاستدعته لتحقق معه ، ولكنه فر إلى تركيا ؛ فاستحضرت الشيخ عبد العزيز جاويش لأنه كتب مقدمة للديوان يثنى على موضوعاته وصاحبه ، واسماعيل حافظ صاحب العلم ، لسؤاله عن سبب مدحه وإطرائه لهذا الديوان .

وبعد التحقيق أحالتهما مع آخرين إلى محكمة الجنايات ، فحوكموا فى جلسة ٩ أغسطس بتهم « التحريض على جناية القتل السياسى وكراهة الحكومة والازدراء بها وتحبيذ الجرائم والعيب فى حق الذات الخديوية . »

وقد حكم على الشيخ الغاياتى غيابياً بالحبس سنة مع الأشغال ، وعلى الشيخ جاويش بالحبس البسيط ثلاثة أشهر ، وحكم على الآخرين بشهرين مع إيقاف التنفيذ .

ومما جاء بديوان « وطنيتى » فى مهاجمته للخديو والطعن على خطته :

« أعباس هـــذا آخر العهد بيننا	فلا تخش منا بعـــد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة	ننال إذا رمنا الحيـــاة عقابا ؟
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها	وأصليتنا بعد الوفاق عذابا ؟ »

وفيه من الدعوة إلى الثورة :

« هل سال فى مصر الدم	أم ثار فيهـــا النـــوم ؟
ومضوا إلى أهل الضـــلا	ل فأعدموا من أعدموا ؟ »

الخطوة الثالثة لإصلاح الأزهر . كان اللورد كرومر يدرك ما للأزهر من كبير الأثر فى تكوين الرأى العام الاسلامى ، وما يحتاج إليه من الاصلاحات الجمة ، وكان يخشى التدخل فى شئونه خشية أن يتهم المصريون الانجليز بتعرضهم لشئونهم الدينية ، غير أنه كان يعضد بطريق غير مباشر الشيخ محمد عبده وغيره من الرجال القلائل الذين كان يأنس فيهم رغبة الاصلاح وتحرير هذا المعهد القديم من ركود الماضى وأغلاله . فلما توفى الشيخ محمد عبده ، وغادر كرومر مصر ، ضعف الاهتمام بأمر الأزهر وإصلاحه ، ولكن الخديو أدرك بذكائه أنه يجنى مغانم معنوية كثيرة إذا استعمل سلطته الخاصة بشئون الأزهر وعنى باصلاحه ، وأنه يستطيع بهذه الوسيلة أن يزيد نفوذه فى العالم الاسلامى وأن يزيد فى بغض الرأى العام الاسلامى للانجليز ؛ ولهذا رأى أن يأخذ حركة إصلاح الأزهر بيده وعندئذ كانت الخطوة الثالثة للاصلاح .

فبعد أن هدأ الشغب الذى كان قائماً والذى أتينا على وصفه فيما تقدم ، وتقرب الزغلوليون من الخديو بالحاق مدرسة القضاء الشرعى بالأزهر — وكان سموه حريصاً على إلغائها ليكون القضاء مختصاً بخريجى الأزهر كما هو شأنه من قديم الزمان — عهد بوضع قانون آخر للأزهر إلى لجنة شكلت من فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية واسماعيل صدقى باشا وعبد الخالق ثروت باشا فوضعوا المشروع على أساس أن تكون جميع المعاهد ملحقة بالأزهر ومجلس إدارته ، وأن ترجع إلى المجلس الأعلى بواسطته ؛ ولكن الخديو لما عاد من السفر وقرىء المشروع أمام لجنة عقدت برياسته برأس التين من بينها رئيس النظار محمد سعيد باشا وحسين رشدى باشا وفتحى زغلول باشا وشيخ الجامع الأحمدى الشيخ محمد حسنين وشيخ معهد الاسكندرية الشيخ أبو الفضل وأنا ، وتليت المادة المتعلقة بالالحاق المذكور ، ناقشها الخديو مناقشة وجيهة قضت بتغييرها ، وتغيير كل ما بنى عليها من المواد ، وجعلت المعاهد كلها تابعة للمجلس الأعلى مباشرة ولكل معهد مجلس إدارة خاص به كالأزهر .


عبد الخالق ثروت باشا

ثم وجه الخديو سؤالا إلى شيخ الجامع الأحمدى قائلا : « هل إذا ثار الأزهر مرة ثانية تثور المعاهد الملحقة به بمقتضى هذه المادة ؟ » فأجابه بأن معهد طنطا لم يسلم من شر هذه الفتنة إلا بقطع العلاقات بينه وبين الأزهر وطلابه وشيوخه فى هذه المدة ، فكانت المشيخة لا ترخص لأحد من الأزهريين بدخول المسجد الأحمدى فى أى وقت من الأوقات ، لا للزيارة ولا لشىء إلا إذا قابل شيخ الجامع الأحمدى فى مكتبه بالمسجد ، بل كنا نعمل على مطاردتهم من المدينة ، وكانت المشيخة تضطرهم الى الخروج منها ، وساعدها على ذلك رجال الحكومة فى طنطا . وانتهت الجلسة عند هذه المادة وصدر الأمر بقراءة المشروع وتعديل سائر مواده على أساس القانون نمرة ٢٦ . ولما تم تعديله على هذا النحو وعرض على الخديو ، اقترح شيخ الجامع الأحمدى إرسال

المشروع لمجالس إدارة المعاهد لابداء ملاحظاتهم عليه ثم قدم الى رئيس مجلس النظار محمد سعيد باشا ، فرأى أن يقرأه أولا فى لجنة مشكلة من شيخ الجامع الأحمدى وفتحى زغلول باشا واسماعيل صدقى باشا ؛ وانتهت قراءته على تعديل كثيرمن مواده ، ثم أخذ بعد ذلك دوراً طويلا فى مجلس الشورى وانتهى الأمر باقراره ، وصدر به الأمر العالى فى ٢٧ سبتمبر ، وعمل به فى المعاهد الدينية .